بسم الله الرحمن الرحيم

توضيح الإساغة لحل ألفاظ البلاغة

تأليف:

الشيخ محمد بن محفوظ بن المختار فال

تحقيق ابن الناظم: محمد يحيى

بمشاركة: محمد عبد الله بن الأمين

وراقة إسماعيل
قبالة المعهد العالي
37327261 - 46592495 - 45290722

الوراقة تحوي مكتبة من المخطوطات
الموريتانية والكتب المطبوعة النادرة

شرح نظم العلامة الجليل الشيخ محمد عبد الله بن الإمام رحمه الله تعالى، وهذا الشرح هو شرح العلامة محمد بن محفوظ بن المختار فال، حفظه الله ورعاه. وقد أشرف على طباعته محمد عبد الله بن محمد الأمين الجكني حفظه الله ورعاه.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد فيقول أفقر العبيد إلى مولاه الغني به عمن سواه محمد بن محفوظ ابن المختار فال إنه قد تكرر علي الطلب ممن لا تسع مخالفته أن أضع له شرحا على نظم البلاغة الواضحة لشيخنا الولي العالم الأعلم الصالح الزكي القدوة السني السني الجهبذ النقاد الكوكب الوقاد نهاية العقول في المنقول والمعقول بقية الراسخين من ساداتنا، آخر المتعبدين على نهج سلفنا سيدنا وبركتنا محمد عبد الله بن الإمام، طيب الله ثراه، وأرضى عنه وأرضاه، وعنا به آمين.

يكون فاتحا لمغلقاته كاشفا عن مخدراته، مبينا لمجملاته، فأجبته إلى ذلك وإن كنت قصير الباع قليل الاطلاع مستعينا بالله تعالى ومعتمدا عليه رجاء الحفظ من الخطأ والزلل في الاعتقاد والقول والعمل راغبا إليه سبحانه وتعالى في إتمام عمله وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به وبأصله النفع العميم إنه على كل شيء قدير وبإجابة من دعاه جدير، وسميت هذا الشرح المبارك إن شاء الله تعالى «**توضيح الإساغة لحل ألفاظ واضح البلاغة**» وكثيرا ما أخرج النص بالشرح إيضاحا للمراد أكثر وهذا أوان الشروع في المقصود، قال الشيخ رضي الله عنه:

حمدا لمن من على الإنسان بالدرك للمعاني والبيان

قوله حمدا مصدر منصوب بفعل محذوف والحمد لغة الثناء بالجميل على الجميل الاختياري على سبيل التعظيم سواء كان من باب الفضائل وهي الأوصاف التي يتعدى أثرها إلى الغير كالكرم والشجاعة ومفردها فضيلة، أم كان من باب الفواضل وهي الأوصاف التي لا يتعدى أثرها إلى الغير كالحسن والطول ومفردها فاضلة، قال الناظم:

فضائل صفة فعل يا فتي فواضل صفة ذات قد أتي

مفرد الأول أتي فضيله والثاني فاضلة خذ وسيله

قوله (لمن) أي الذي وهي واقعة على الله تعالى قوله (من) بفتح الميم وتشديد النون فعل ماض أي تفضل كرما منه قوله (على الإنسان) أي على جنس الإنس وهو علم ذهني على آدم وذريته قوله (بالدرك) اسم مصدر بمعناه أي الإدراك وهو الوصول إلى غاية الشيء ومنه أدركت الثمرة إذا بلغت منتهاها في الطيب ويسمى تصورا والمراد به هنا ما يشمل التصديق قوله (للمعاني) جمع معنى مفعل بمعنى مفعول وهو ما يراد من اللفظ عند النطق به قال:

وما به الألفاظ قصدا تعني حد لمعناه وحد المعنى

قوله (والبيان) أي التبين وهو لغة الظهور والإظهار واصطلاحا هو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير وهذا إشارة منه رضي الله تعالى عنه إلى قوله تعالى الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان الآية قوله (سبحانه) أي تنزيها لله تعالى عن الصاحبة والولد وعن كل ما يقوله الظالمون فهو علم جنس على الشيخ منصوب على المصدرية، قوله (من خالق) مقدر وسبحانه من كذا تعجب منه قوله (بديع) أي مبدع فقيل بمعنى مفعل عدل عنها إليه للمبالغة وهو الذي يأتي بما لم يسبق إليه، وقيل الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته، والوصفان من أسمائه تعالى الثابتة في القرآن والسنة وفي التعبير بالبديع والمعاني والبيان براعة الاستهلال وهي أن يأتي المتكلم في الابتداء بما يناسب المقصود متضمنا معنى ما سبق الكلام له ويسمى براعة المطلع كقوله تعالى: {سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون} الآية. قال الراجز:

وبرعوا أيضا بالاستهلال وأول النور بهذا الحال

هو قوله (صلى) أي شرف وعظم فالصلاة من الله تشريف وإنافة منزلة في حق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الصحيح قال:

هي من الإله قل تشريف في حق من مقداره منيف

وذاك قول راجح ومرتضى والقول بالرحمة قول قد أضا

قوله (وسلم) أي أمن فالسلام أمان من النقائض والمراد به زيادته لا أصله لحصول الأصل له ﷺ بالعصمة والمراد طلبه للأمة والجملتان خبريتا اللفظ إنشائيتا المعنى قوله (الشفيع) فعيل بمعنى فاعل عدل عنه إليه للمبالغة لتناسب الصيغة شمول شفاعاته وكثرتها في الأخرى فهي ست الأولى الشفاعة لتعجيل الحساب وهي أعمها وأعظمها لدخول الجميع فيها وهي خاصة به بنص الحديث، الثانية كإدخال قوم الجنة بغير حساب ولا عقاب وهي من خصوصياته كذلك عند الإمام النووي، الثالثة شفاعته في بعض من استحق دخول النار من المؤمنين فلا يدخلها وتردد النووي في اختصاصه بها وجزم القاضي عياض بنفيه، الرابعة في إخراج بعض الموحدين من النار ويشاركه فيها غيره في مطلق الإخراج كافي الكم وكافي الكيف، الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة وهي كسابقتها، السادسة في تخفيف العذاب عمن استحق الخلود في النار كأبي طالب وهي من خصوصياته صلى الله تعالى عليه وسلم قال:

هذا وذي منظومته جليله وافية للمبتدي جزيله

قوله (هذا) الأمر هذا أو هذا الأمر قوله (وذي) اسم إشارة إلى مفرد مؤنث ذهني تقرض الترجمة على التأليف أو حسي إن تأخرت عنه وفيه عشر لغات قوله (منظومة) أي مفعولة من النظم وهو التأليف والضم قوله (جليله) أي عظمة عزيزة لما اشتملت عليه من الفنون الثلاثة مع قلة حجمها وسلاسة ألفاظها قوله (وافية) أي تامة جامعة للمقصود قوله (للمبتدي) أي في هذا الفن وهو من لم يقرأ شيئا من تأليفه قبلها ولو كان كبير السن قوله (جزيله) أي غير ركيكه فالجزيل من الألفاظ ضد الركيك ضمنتها من خالص المعاني ودرر البديع والبيان قوله (ضمنتها) أي جعلت فيها فضمن الكتاب بالكسر طيه ومتضمنه ما اشتمل عليه قوله (من) زايدة (خالص) أي صفوة علم (البيان) وسيلة تعريف وواضعه وثمرته قوله (ودرر) جمع درة لكبار اللؤلؤ عطف على سابقه أي وخالص درر علم (البديع) وسيأتي تعريفه وواضعه قوله

(والمعاني) عطف على سابقيه أي وخالص علم البيان وسيلة تعريف وثمرته وواضعه قال:

نظمت فيها واضح البلاغة نظما يراه المبتدى بلاغه

قوله (نظمت) أي جمعت وألفت قوله (فيها) أي ضمن هذه المنظومة محتوى الكتاب المسمى (واضح البلاغة) من إضافة الصفة إلى الموصوف إذ الأصل البلاغة الواضحة للأستاذين علي الجارم ومصطفى أمين قوله (نظما) مفعول مطلق نصب بما قبله أي تأليفا وجمعا قوله (يراه) مضارع رأى ويمكن كونها علمية أو بصرية قوله (المبتدي بلاغه) أي كفايته مفعول ثاني على الأول وحال على الثاني والهاء فيه للسكت على تقدير وقف ربيعه وليست للتأنيث حسبما في المعاجم أو عائدة على المبتدأ

وها أنا أبدأ بالبيان وأبدأ التشبيه بالبيان

قوله (وها) حرف تنبيه (أنا) أيها المتكلم قوله (أبدأ) أي ابتدئ كلامي على هذه الفنون الثلاثة بدأ الكلام على (البيان) وهو علم يعرف به بدء إيراد المعنى الواحد المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال بطرق مختلفة في إيضاح الدلالة عليه بأن يكون بعض الطرق واضح الدلالة وبعضها أوضح فهو أخص من علم المعاني لتركيبه منه وزيادة ولذا يؤخر عنه في الذكر كأنه بمنزلة الجنس له كالحيوان مع الإنسان عكس ما فعل الشيخ تبعا لأصله وموضوعه الألفاظ العربية من حيث التشبيه والمجاز والكناية وواضعه أبو عبيدة الذي دون مسائله في كتابه المسمى إعجاز القرآن وتبعه الجاحظ وابن المعتز وقدامة وأبو هلال العسكري وما زال ينمو شيئا فشيئا إلى أن وصل إلى الإمام عبد القاهر فأحكم أساسه وشيد بنائه ورتب قواعده وثمرته الوقوف على أسرار كلام العرب منثوره ومنظومه ومعرفة ما فيه من تفاوت في فنون الفصاحة وتباين في درجات البلاغة التي يصل بها إلى درجة إعجاز القرآن الكريم الذي صار الإنس والجن في محاكاته وعجزوا عن الإتيان بمثله

وحكمه الوجوب كفاية قوله (وأبدأه) أي أقدم باب (التشبيه) أي في تعريفه من قوله (بالبيان) أي الإظهار والتوضيح قال

من بعد أن تسبقه مقدمه فيما على الطالب أن يقدمه

قوله من بعد أن تسبقه مقدمة بكسر الدال أفصح من فتحها وتطلق عندهم على معنيين أحدهما مقدمة العلم وهي اسم لما يتوقف عليه الشروع في مسائله كالحد والموضوع والحكم والثمرة، والثاني مقدمة الكتاب وهي اسم لطائفة من الكلام تذكر أمام المقصود لارتباط له بها وانتفاع بها فيه وهذا الإطلاق هو المراد هنا قوله (فيما) أي في الذي يجب عادة (على) الشخص (الطالب) أي المريد لتعلم هذا الفن قوله (أن يقدمه) أمام المقصود ليستعين به على المراد، قال

فصاحة المفرد أن يجرى على قياسه ومن تنافر خلا

قوله (فصاحة المفرد) أي من الكلم أي ظهور وبيان المعنى المفرد فالفصاحة لغة صفة للبن الذي أخذت رغوته والفصيح هو هذا اللبن قال

..... وتحت الرغوة اللبن الفصيح

وتطلق على معان كثيرة منها البيان والظهور قال تعالى حاكيا عن موسى وأخيه هارون {هو أفصح مني لسانا} أي أبين مني منطقا وأظهر مني قولا وفي اصطلاح أهل الفن ما أشار له الشيخ بقوله (أن يجرى) أي يأتي بالتركيب للفاعل فأن غير عاملة على حد قوله:

أن تقرآن على أسماء ويحكما مني السلام وأن لا تشعرا أحدا

وبه قرئ {أن يتم الرضاعة} بالرفع أو يجرى بالتركيب للمفعول وعلى كل فالضمير للمفرد قوله (على قياسه) أي القانون الصرفي المستنبط من كلام العرب فإن خالف ذلك كان غير فصيح كلفظ الأجلل من قوله أبي النجم الحمد لله العلي الأجلل الواحد الفرد القديم الأول، وقول المتنبي

ولا يبرم الأمر الذي هو حالل ولا يحلل الأمر الذي هو يبرم

وكقطع همزة الوصل في كلمة اثنين من قول جميل

ألا لا أرى إثنين أحسن شيمة على حدثان الدهر مني ومن جمل

قال حازم الأندلسي وضرائر الشعر من هذا الباب إلا ما لا تستوحش منه النفس كصرف ما لا ينصرف وقصر الممدود ومد المقصور وكسر الراء في المشرق والمغرب والقياس فتحها فيهما وكضم الميم والعين في المدهن والمنخل والقياس فيهما كسر الميم وفتح العين قوله (ومن تنافر) أي بين حروفه (خلا) أي سلم ليكون رقيقا عذبا خفيفا على اللسان لا يثقل على السمع كلفظ أسد فإنه أخف من فروكس والمعنى واحد فإن تنافرت حروفه كان غير فصيح لصعوبة أدائه باللسان وثقله على السمع وهو قسمان الأول ما تكون الكلمة فيه متناهية في الثقل وعسر النطق بها على اللسان كالظش بإعجام الظاء والشيم للموضع الخشن وكهعخع بضم الهاء والخاء المعجمة وسكون العين المهملة الأولى من قول أعرابي وقد سئل عن ناقته تركتها ترعى الهعخع لأن الهاء والعين لا يكادان يجتمعان من غير فاصل وهو شجر أو نبت يتداوى به وترعاه الإبل وقيل لا أصل له في كلامه وإنما هو الخعخع بخائين معجمتين وهو نظيره في الثقل . الثاني ما كان خفيفا في الثقل كالنقنقة لصوت الضفادع والنفاخ للماء العذب الصافي وكمستشزرات من قول امرئ القيس:

غدائره مستشزرات إلى العلى تضل العفاص في مثنى ومرسل

وسبب التنافر توسط الشين وهي مهموسة رخوة بين التاء وهي مهموسة شديدة والزاء وهي مجهورة ولا ضابط لمعرفة ثقل اللفظ وصعوبته سوى الذوق السليم والحس الصادق الناجمين عن النظر في كلام البلغاء وممارسة أساليبهم، قال:

ومن غرابة وفي الكلام جرى على القياس يا غلام

قوله (ومن غرابة) يعني أن من شروط فصاحة المفرد سلامته من الغرابة في الاستعمال وذلك لا يقع إلا بكونه ظاهر المعنى مألوف الاستعمال عند العرب

الفصحاء، لأن المعول عليه في ذلك استعمالهم، فإن كان اللفظ غريبا كان غير فصيح، والغرابة قسمان: الأول كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال فيؤدي استعمالها إلى حيرة السامع في فهم المعنى المراد منها لترددها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة كمسرجا بفتح الميم والسين من قول رؤبة بن العجاج:

أزمان أبدت واضحا مفلجا أغر براقا وطرفا أبرجا

ومـــقلـة مـــزججا وفاحما ومرسنا مسرجا

فإن مسرجا وصف لمرسن وهو الأنف، ولغرابتها لا يدري ما أراد بها حتى اختلف أهل اللغة في تخريجه فبعضهم قال أنه يريد أن أنفه في الاستواء والدقة يشبه السيف السريجي وهو قين صاغ السيوف، وبعضهم قال يريد أنه في البريق واللمعان كالسراج.

القسم الثاني ما يعاب استعماله لاحتياجه إلى كثرة البحث والتفتيش في المعاجم والقواميس العربية، فمنه ما يعثر فيها على تفسير معناه بعد كد وبحث نحو تكأكأتم علي بمعنى اجتمعتم، ومنه ما لم يعثر له على تفسير نحو حجلنجع من قول أبي الهميسع:

من طمحة صبيرها حجلنجع لم يحضها الجدول بالتنوع

فالطمحة النظرة والصبير السحاب المتراكم والحجلنجع قال القاموس ذكروه ولم يفسروه، وقالوا كان أبو الهميسع من أعراب مدين وكنا لا نكاد نفهم كلامه، وعلى هذا فملخص القول أن فصاحة الكلمة تكون بجريها على القياس وسلامتها من تنافر الحروف ومن غرابة المعنى، فإن لصق بها عيب من هذه العيوب وجب نبذها وإطراحها، وإنما انحصر سبب الإخلال في هذه الثلاثة لأنه من جهة الصورة وهي المخالفة، أو من جهة الثقل وهي الغرابة، قوله (وفي الكلام) يعني أن فصاحة الكلام يشترط فيها بعد فصاحة مفرداته سلامته من تنافر كلماته ومما يبهم معناه ويحول دون فهم المراد منه ويتحقق ذلك بأمور أشار إلى أولها بقوله (جرى) أي مجيء (على القياس) المضطرد من قواعد النحو المعتبرة عند جمهور علماء العربية بأن لا

يكون فيه وصل ضميرين متحدي الرتبة ولا تقديم لغير الأعرف منهما لوجوب الفصل في الحالتين، ومنه قول المتنبي:

خلت البلاد من الغزالة ليلها فأعاضهاك الله كي لا تحزنا

وكذا الإضمار قبل ذكر مرجعه لفظا ورتبة وحكما في غير أبوابه نحو قوله:

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

فإن الضمير في مجده عائد إلى مطعم وهو متأخر في اللفظ كما رأيت وفي الرتبة كأنه مفعول به وقوله(يا غلام) تتميم للبيت فقط قال:

ومن تنافر وتعقيد سلم معنى ولفظا مع فصاحة الكلم

قوله (ومن تنافر) صلة سلم الآتي وما بعده عطف عليه يشير به إلى الشرط الثاني من شروط فصاحة الكلام وهو أن يسلم من تنافر يجري بين كلماته إذا اجتمعت بحيث لا يكون اتصال بعضها ببعض مما يسبب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان فإن كان كذلك فليس بفصيح وهو قسمان الأول منهما شديد الثقل كقوله:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فإن الشطر الأخير من هذا البيت غير فصيح لتنافر كلماته، ولذا قيل إنه لا يمكن لأحد إنشاده ثلاث مرات بلا تتعتع لأن نفس اجتماع كلماته وقرب مخارج حروفها يحدثان ثقلا ظاهرا مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها ما كانت مستكرهة ولا ثقيلة، وبعضهم يزعم أنه من شعر الجن. الثاني منه ما هو خفيف الثقل كالشطر الأول من قول أبي تمام:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

فإن تكرير أمدحه في البيت سبب ثقلا في الكلام لا مجرد اجتماع الحاء والهاء على الصحيح لورود ذلك في فصيح الكلام قال تعالى: {وسبحه ليلا طويلا} قوله (وتعقيد سلم) يعني أن من شروط فصاحة الكلام كونه سالما من أي تعقيد أي خلل في

الدلالة على المعنى المقصود، قوله (معنى) يعني في المعنى والتعقيد المعنوي ينشأ من كون التركيب خفي الدلالة على المعنى المراد بحيث لا يفهم معناه إلا بعد عناء وتفكير طويل بسبب استعمال المتكلم في التعبير عن مراده كلمات في غير معانيها الحقيقية مسيئا اختيارها للمعنى الذي أراده فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع كقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

فإنه جعل سكب الدموع كناية عما يلزم في فراق الأحبة من الحزن والكمد فأصاب وأحسن في ذلك ولكنه أخطأ في جعل جمود العين كناية عما يوجبه التلاقي من الفرح والسرور بقرب أحبته وهو خفي بعيد إذ لم يعرف في كلام العرب عند الدعاء لشخص بالسرور أن يقال له جمدت عيناك أو لا زالت عيناك جامدة، بل المعروف عندهم أن جمود العين إنما يكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن كقول أبي عطاء يرثي ابن هبيرة:

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك بجاري دمعها لجمود

قوله (ولفظا) يعني أن من شروط فصاحة الكلام سلامته من التعقيد اللفظي وهو كون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد به بسبب تأخير بعض الكلمات أو تقديمها عن مواقعها الأصلية أو بالفصل بين الكلمات التي كان من حقها أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض أو بالإضمار وغير ذلك، فإذا قلت مثلا ما قرأ إلا واحدا محمد مع كتابا أخيه كان هذا الكلام غير فصيح لضعف تأليفه إذ الأصل فيه ما قرأ محمد مع أخيه إلا كتابا واحدا، ومثله قول الفرزدق يمدح خال هشام بن عبد الملك:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه بقاربه

قوله (مع فصاحة الكلم) يعني أنه يشترط في فصاحة الكلام زيادة على ما تقدم شرط رابع وهو فصاحة كلماته كل على انفرادها وذلك بجريانها على القياس الصحيح وسهولتها في النطق وألفتها في الاستعمال كما تقدم، وهذا باعتبار الكلام، وأما باعتبار المتكلم فسيأتي إن شاء الله تعالى، قال:

ثم بلاغة الكلام طبق ما من مقتضى الحال له قد علما

قوله (ثم بلاغة الكلام) البلاغة لغة الوصول والانتهاء إلى غاية الشيء، يقال بلغ فلان مراده إذا وصل إليه وبلغ الركب المدينة إذا انتهى إليها، ومبلغ الشيء منتهاه وبلغ الرجل بلاغة إذا أحسن التعبير عن مراده، وأما تعريفها اصطلاحا فهو ما أشار إليه بقوله (طبق ما من مقتضى الحال له قد علما) يعني أن بلاغة الكلام عند أهل الفن هي مطابقته للذي استوجب الحال له من كل ما قد علم اشتراطه في محاله، قال (وهو اعتبارنا المناسب المقام) يعني مقتضى الحال الداعي إلى الكلام هو المسمى عندهم أيضا بالاعتبار المناسب ومطابقة الكلام له إتيانه على وفق ما يدعو إليه حال المخاطب من المتكلم على وجه مخصوص وذلك لا يحصل إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين واعتبار طبقاتهم في البلاغة وقوتهم في البيان والمنطق، فللسوقة كلام لا يصلح غيره في موضعه والغرض الذي بني له، ولسراة القوم والأمراء فن آخر لا يسد مسده سواه، ولأجل هذا كانت مراتب البلاغة متفاوتة بقدر تفاوت الاعتبارات والمقتضيات، وبقدر رعايتها يرتفع شأن الكلام في الحسن والقبح ويرتقي صعدا إلى حيث تنقطع الأطماع وتحور القوى، والحال الذي تجب مطابقته ويسمى بالمقام، هو الأمر الحامل للمتكلم أن يورد عبارته على صورة مخصوصة دون أخرى، فالمدح مثلا حال تقتضي إيراد العبارة على صورة الإطناب حال تدعو إلى إيرادها على صورة الإيجاز، فكل من المدح والذم حال ومقام، وكل من الإطناب والإيجاز مقتضى، وإيراد الكلام على صورة الإيجاز والإطناب مطابقة للمقتضى، وعلى هذا فملخص القول أن الأمر الحامل للمتكلم على إيراد عبارته في صورة دون أخرى يسمى مقاما وحالا، وإلقاء الكلام على تلك الصورة المقتضاة يسمى مقتضى واعتبارا، والبلاغة هي مطابقة الكلام لما يقتضيه الحال مع فصاحة ألفاظ مركبها ومفردها، ولذا قال (واشترطوا فيها فصاحة الكلام) يعني أن أرباب الفن اشترطوا فصاحة الكلام إفرادا وتركيبا في بلاغته قال:

وصف بها القائل حيث قدرا عليهما بملكة له ترى

يعني أن الفصاحة والبلاغة كل منهما يوصف بها المتكلم إذا كان قادرا على التعبير عنهما بملكته أي هيئته الراسخة في ذهنه حيث يمكنه تأليف الكلام الفصيح المطابق لمقتضى الحال متى شاء ذلك ولو لم يتكلم بالفعل، أما من تكلم بالفصيح وليست له ملكة فليس بفصيح، وكذا من تكلم به فصيحا مطابقا لمقتضى الحال وليست له ملكة على ذلك فلا يعد بليغا، وهذه الملكة غاية لن يصل إليها إلا من أحاط بأساليب العرب خبرا وعرف سنن تخاطبهم في منافراتهم ومفاخراتهم ومديحهم وهجائهم وشكرهم واعتذارهم ليلبس لكل حالة لبوسها ولكل مقام مقاله، وقوله في البيت ملكة بسكون وهي لغة لقوم ويجوز استعمالها تخفيفا كما هنا قال:

وبالبلاغة الكلام لا الكلم ووصف ذين بالفصاحة علم

قوله (وبالبلاغة الكلام) يعني أن الكلام التام يوصف بالبلاغة فيقال كلام بليغ قوله (لا الكلم) يعني أن الكلم والكلمة من باب أولى لا يوصفان بالبلاغة ومثلهما في ذلك القول المجرد قوله (ووصف ذين بالفصاحة علم) يعني أن الكلام والكلم وصفهما عند المتقدمين بالفصاحة كما توصف بها الكلمة والمركب ومثل البلاغة في هذا البراعة، فما يوصف بالبلاغة يوصف بالبراعة وما لا فلا، قال:

فقلت والله هو المعين إياه نعبد ونستعين

تصور معنى البيت واضح وقد اشتمل على اقتباس من الآية الكريمة مع تغيير الضمير من الخطاب إلى الغيبة والصحيح عندهم جوازه ما يصرح به الشيخ رضي الله عنه في فن البديع بقوله: (وقد أجيز فيه تغيير يسير) قلت وكان من حق الشيخ أن يلحق بقوله الماضي نظما يراه المبتدئ بلاغة، قوله من بعد أن تسبقه مقدمة البيت مغيرا لفظة من بعد أن تسبقه بقوله لكنني أبدأ بالمقدمة ثم يلحق به قوله هنا فقلت إلخ ثم يضع عنوان المقدمة ثم يلصق به قوله هناك فصاحة المفرد إلخ ثم يؤخر قوله هناك وها أنا أبدأ البيت ليلصقه بقوله هنا ووصف ذين بالفصاحة علم فيكون تركيب الأبيات هكذا:

نظمت فيها واضح البلاغه نظما يراه المبتدي بلاغه

لكنني أبدأ بالمقدمه فيما على الطالب أن يقدمه
فقلت والله هو المعين إياه نعبد ونستعين

(مقدمة)

فصاحة المفرد أن يرى على قياسه ومن تنافر خلا
ومن غرابة وفي الكلام جرى على القياس يا غلام
ومن تنافر وتعقيد سلم معنى ولفظا مع فصاحة علم
ثم بلاغة الكلام طبق ما من مقتضى الحال له قد علما
وهو اعتبارنا المناسب المقام واشترطوا فيها فصاحة الكلام
صف بهما القائل حيث قدرا عليهما بملكة له ترى
وبالبلاغة الكلام لا الكلم ووصف ذين بالفصاحة علم
وها أنا أبدأ بالبيان وأبدا التشبيه بالبيان

للسلامة من إيهام خروج المقدمة عن محتوى الكتاب وللسلامة من التشويش وليتصل البيان بالمبين وتكون المقدمة من محكي القول، ولعل ذلك عائد إلى مبيضي المسودة أو إلى اتباع الشيخ لأصله، والله تعالى أعلم.

فائدة: نقل السيوطي عن الزركشي في قواعده أن بعض المشايخ كان يقول: العلوم ثلاثة علم نضج وما احترق وهو علم الأصول والنحو. وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير. وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث.

باب التشبيه:

وهو لغة التمثيل يقال هذا شبه هذا ومثله ومثيله، واصطلاحا عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم وإلى هذا أشار الشيخ فقال:

بيان أن الشيء قد ساواه في صفة أو فوقها سواه

يعني أن التشبيه في الاصطلاح هو إظهار إيضاح أن الشيء من حيث هو حسيا كان أو معنويا قد ماثله وشابهه في صفة واحدة أو أكثر منها غيره، قال:

بالكاف أو مشبهها ملفوظه طورا وتارة ترى ملحوظه

يعني أن المشابهة المذكورة لا تكون إلا بالكاف خاصة أو ما يشبهها من الألفاظ الدالة على التشبيه وربط المشبه بالمشبه به ككأن ومثل وشابه وضارع وسواء كانت أدوات التشبيه مذكورة أي منطوقا بها كقولنا كأن عمر في رعيته كالميزان في العدل، أو كانت ملحوظة أي منوية كقولنا كأن أبو بكر في رعيته والدا في الشفقة والحنان، قال:

أركانه الأصل المشبه به ثم المشبه ووجه الشبه

(ثم أداته)..... .....

يعني أن أركان التشبيه أربعة هي الأصل وهو الأمر المشبه به غيره كأسد من قولنا زيد كالأسد ثم الفرع وهو الأمر المشبه وهو الذي يراد إلحاقه بغيره كزيد في المثال السابق وهما طرفا التشبيه ووجه الشبه بين الطرفين وهو الوصف المشترك بينهما كالشجاعة في المثال السابق ثم أداة التشبيه من كاف أو غيرها قال:

..... ووجه الشبه أظهر أقوى في المشبه به

يعني أن وجه الشبه المتقدم ذكره لا بد أن يكون أظهر في المشبه به وأقوى غالبا، ومن غير الغالب قوله ﷺ« اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وقد يكون كل من وجه الشبه والأداة محذوفا في الكلام وقد يكون مذكورا كما سيأتي توضيحه إن شاء الله تعالى قال:

ما ذكرت فيه الأداة مرسل وغيره مؤكد .....

يعني أن التشبيه باعتبار ذكر أداة التشبيه وحذفها ينقسم إلى مرسل وهو ما ذكرت فيه الأداة الدالة على التشبيه كقوله:

إنما الدنيا كبيت نسجه من عنكبوت

وإلى مؤكد وهو ما حذفت منه الأداة كقوله:

وأنت نجم في رفعة وضياء تجتليك العيون شرقا وغربا

وكقولنا يسجع سجع القمري، ومن التشبيه المؤكد ما أضيف فيه المشبه به إلى المشبه كقوله:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

أي أصيل كالذهب في الصفرة وماء كاللجين في البياض والصفاء وهو أوجز وأبلغ في الكلام وأشد وقعا في النفوس لحذف أداته وإيهامه أن المشبه عين المشبه به قال:

.... **والمجمل**

ما وجه التشبيه به ينخزل وعكسه عندهم المفصل

يعني أنن التشبيه باعتبار حذف وجه الشبه وذكره ينقسم أيضا إلى مجمل ومفصل، فالمجمل هو ما لم يذكر فيه وجه الشبه ولا ما يستلزمه كقولنا النحو في الكلام كالملح في الطعام، فوجه الشبه بينهما هو الإصلاح وقد حذف، وأما المفصل فهو ما ذكر فيه وجه الشبه أو ملزومه نحو طبع محمد كالنسيم رقة ويده كالبحر جودا وكلامه كالدر حسنا وألفاظه كالعسل حلاوة، ومنه قول ابن الرومي:

يشبه البدر حسنا وضياء ومنالا

وشيبة الغصن لينا وقواما واعتدالا

قال:

ما وجهه ثم الأداة حذفا هو البليغ عندهم قد عرفا

يعني أن التشبيه ينقسم باعتبار حذف وجه الشبه وأداته إلى بليغ وأبلغ، فالبليغ ما حذف فيه وجه الشبه المنتزع من مفرد وحذفت معه أداته كقوله:

فاقضوا مئاربكم سراعا إنما أعماركم سفر من الأسفار

وكقولك زيد أسد، وإنما سمي بالبليغ لأن ذكر الطرفين فقط يوهم اتحادهما وعدم تفاضلهما فيعلو بذلك المشبه إلى مستوى المشبه به، وهذه هي المبالغة في قوة التشبيه لأن وجه الشبه كلما كان أقل ظهورا كان أبعد منالا وبعد وكلما كان أبعد منالا كانت النفس أحوج في إدراكه إلى إعمال الفكر فتتأثر بذلك وتهتز عند إدراكه لما هو مركوز في الطبع من أن الشيء إذا وجد بعد معاناة الطلب له كان نيله أحلى وموقعه أجل وألطف وكانت النفس به أضن وأشغف، قال:

ما وجهه جا صورة تنتزع من متعدد فتمثيلا فعوا

يعني أن وجه الشبه المحذوف إذا كان صورة منتزعة من متعدد سمي تمثيلا، وهو التشبيه الأبلغ لما في وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر وتدقيق نظر سواء كان وجه الشبه منتزعا من متعدد حسي أو معنوي كقوله:

وما المرء إلا كالهلال وضوئه يوافي تمام الشهر ثم يغيب

فوجه الشبه سرعة الفناء وقد انتزعه الشاعر من متعدد وهو اختلاف أحوال القمر إذ يبدو هلالا فيصير قمرا ثم ينقص حتى يدركه المحاق، وهو نوعان:

1. ما كان ظاهر الأداة نحو {مثل الذين حملوا التورية ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا} فالمشبه هم الذين حملوا التورية ولم يعقلوا ما بها والمشبه به الحمار الذي يحمل الكتب النافعة دون استفادة منها والأداة الكاف ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من التعب في حمل النافع دون فائدة.

2. الثاني ما كان خفي الأداة كقولك للمتردد في فعل الشيء وتركه أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، إذ الأصل أراك في ترددك مثل من يقدم رجلا ثم يؤخرها مرة أخرى، فالأداة وهي مثل محذوفة، ووجه الشبه هيئة الإقدام والإحجام المصحوبين بالشك، ولأجل احتياج هذا النوع من التشبيه إلى كد الذهن في فهمه لاستخراج الصورة المنتزعة من الأمور المتعددة كان هذا النوع من التشبيه أعظم أثرا في المعاني يرفع

قدرها ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها فإن كان مدحا كان أوقع وإن كان هجاء كان أوجع وإن كان برهانا كان أسطع. قال:

ضمنيه ما الأصل والفرع سقط منه ويلمحان في التركيب قط

يعني أن من التشبيه قسما يسمى التشبيه الضمني وهو ما سقط فيه ذكر الطرفين أي المشبه والمشبه به ولكنهما يلحظان ويفهمان من التركيب وقوله سقط فيه ضمير يعود على الأصل والفرع معطوف عليه ثم أشار إلى مثال للتشبيه الضمني بقوله:

أعني بأن لا يوضع المشبه به ولا مشبه فانتبهوا
في صورة من صور التشبيه تلك التي تعرف للنبيه
قلت وقد يرسم للتنبيه من غير تصريح على التشبيه

يعني أن التشبيه الضمني مخالف لجميع صور التشبيه المعهودة كقول المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

يريد أن الذي اعتاد الهوان يسهل عليه تحمله ولا يتألم له، وليس هذا الادعاء باطلا لأن الميت إذا جرح لا يتألم، وفيه تلميح بالتشبيه من غير تصريح وليس هذا على صورة من صور التشبيه المعروفة وهي ما ذكرت فيه الأداة نحو الماء كاللجين أو حذفت والمشبه به خبر عن المشبه نحو الماء لجين أو كأن الماء لجينا أو حال كسال الماء لجينا أو مصدر مبين للنوع نحو صفاء الماء صفاء اللجين أو مضاف إلى المشبه كسال لجين الماء أو غير ذلك، بل هو تشابه يقتضي التفاوت قال:

يؤتى به لفيد أن الحكم في مشبه يمكن أن لا ينتفي

يعني أن هذا النوع من التشبيه يؤتى به لإفادة السامع إمكان ثبوت الحكم للمشبه لكون المشبه به برهانا عليه، ومنه قول المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

فقد بين الشاعر بذكر المسك الذي هو بعض أفراد الدم المتفوق عليه أنه لا غرابة في تفوق ممدوحه على الناس مع كونه فردا من أفرادهم، ومنه قوله تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب} الآية. ثم أشار إلى بعض أغراض التشبيه فقال:

أغراضه كثيرة إليكا بيانها أمله عليكا

إليك اسم فعل بمعنى خذ وما بعده مفعول به وبيانها أي إظهارها وتوضيحها وقوله أمله مضارع أمله قال له فكتب عنه وعليك ضميره للخاطب ومن تلك الأغراض قوله

كمثل أن تبين للمنبــه بذكره إمكان ذا المشبه

حيث يرى ثبوته غريبا فتذكرن نظيره تقريبا

إن من أغراض التشبيه أن يظهر المتكلم للسامع بذكر المشبه به إمكان حصول المشبه الذي يبدو غريبا يستبعد حصوله عند المخاطب وذكر المشبه به يزيل غرابته ويبين إمكان حصوله كما تقدم تمثيله آنفا في الآية وبيت المتنبي ثم قال

كذا بيان حاله إذ تجهل صفته قبيل ما يمثل

يعني أن من أغراض التشبيه إظهار الحالة التي هو عليها إذا كانت مجهولة عند المخاطب أصلا قبل ذكر المشبه به كقوله:

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

فقد شبه الشاعر عظام محبوبته بالخيزران بيانا لما فيها من اللين والتشبيه لهذا الغرض يكثر في الفنون والعلوم لمجرد البيان والإيضاح فلا يكون فيه حينئذ أثر للبلاغة لخلوه من الخيال ولعدم احتياجه إلى التفكير لكنه لا يخلو من ميزة الاختصار وتقريب الحقيقة إلى الأذهان وذلك حينما يكون المشهد مبهما مجهول الصفة التي يراد ثباتها له عند المخاطب قبل التشبيه فيفيده التشبيه الوصف ويوضحه له ذكر المشبه به كقولهم الأرض كالكرة ثم قال:

منها يرى بيان قدر الحال إذ يعرف الوصف على الإجمال

يعني أن من أغراض التشبيه إفادة المخاطب حقيقة الصفة التي عليها المشبه من وصف ويعلم السامع اتصافه بمطلقه فبين له مقداره في القوة والضعف والقلة والكثرة بذكر نصيبه من هذه الصفة وذلك بأن يعمد المتكلم إلى كلام يبين فيه للسامع ما يعنيه من هذا المقدار كقوله :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سودا كخافية الغراب الأسحم

فإنه شبه النوق السود بخافية الغراب بيانا لمقدار سوادها إذ السواد صفة مشككة ثم قال:

تقرير حاله إذ التوضيح يحتاجه التحسين أو التقبيح

يعني أن من أغراض التشبيه عند أهل الفن تقرير حال المشبه وتمكينها في ذهن السامع وذلك بإبرازها فيما هي فيه أظهر ويكثر ذلك في تشبيه الأمور المعنوية بأخرى تدرك بالحس كقولهم «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر»، ومما يدعو إلى هذا النوع من التشبيه الحرص على توضيح الأمر المقصود مثل ما إذا كان ما أسند إلى المشبه يحتاج إلى التثبت والإيضاح فيأتي المتكلم بمشبه به حسي قريب التصور عند المخاطب ويزيد معنى المشبه إيضاحا لما في المشبه به من قوة الظهور والتمام كقوله:

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

فتشبيه تنافر القلوب المعنوي بكسر الزجاجة الحسي يثبت تعذر عودة القلوب إلى ما كانت عليه من الإنس والمودة وفي تصوير الشاعر الأمر المعنوي بصورة الأمر الحسي إيضاح لمراده، ومما يدعو إليه أيضا تحسين الأمر وتزيينه بالمدح ترغيبا فيه أو تعظيما له وذلك بتصويره بصورة تهيج في النفس قوى الاستحسان كما إذا عمد المتكلم إلى ذكر مشبه به قد استقر في النفوس حسنه وحبه وعظمته فيصور المشبه بصورته كقوله:

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ومما يدعو إليه كذلك قصد تشويه المشبه وتحقيره لتنفر النفوس منه وذلك بتصويره بصورة تمجها الطباع وتنفر منها النفوس كقوله:

وإذا أشار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم

قلت وبقي عليه من أغراض التشبيه استطرافه أي عده طريفا حديثا بحيث يجيء المشبه به طريفا غير مألوف للذهن إما كإبرازه في صورة الممتنع عادة كما في تشبيه فحم فيه جمر متقد ببحر من المسك موجه الذهب ومنه قوله:

وكان محمر الشقـــــائـق إذ تصوب أو تصعد

أعلام ياقوت نشـــــرن على رماح من زبرجد

قال:

جعل المشبه مشبها به مقلو به لقوة الوجه به

يعني أن من أقسام التشبيه قسما يسمى التشبيه المقلوب والمعكوس وهو أن يجعل المشبه بغيره مشبها به غيره فتعود فائدة التشبيه في الظاهر إلى المشبه به ادعاء أن وجه الشبه أتم وأظهر في المشبه كقول الحميري:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فقد شبه الشاعر غرة الصباح بوجه الخليفة إيهاما أنه أتم منها في وجه الشبه وهذا التشبيه مظهر من مظاهر الافتنان والإبداع ومنه قوله تعالى حكاية عن الكفار {إنما البيع مثل الربا} في مقام أن الربا مثل البيع فعكسوا ذلك لإيهام أن الربا عندهم أحل من البيع كأن الغرض الربح وهو أثبت وجودا منه في البيع فيكون أحق بالحل عندهم.

الباب الثاني المجاز:

وهو مشتق من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه سمي العرب به اللفظ الذي نقل عن معناه الأصلي واستعمل ثانيا ليدل على معنى غيره مناسب له، وهو من أحسن الوسائل البيانية التي تميل إليها الطبيعة لإيضاح المعنى إذ به يخرج المعنى متصفا بصفة حسية تكاد تعرضه على عيان السامع لهذا أشغفت العرب باستعماله لميلها إلى الاتساع في الكلام وإلى الدلالة على كثرة معاني الألفاظ ولما فيه من الدقة في التعبير فيحصل للنفس به سرور وأريحية فكثر في كلامهم حتى أتوا فيه بكل معنى رائق وزينوا به خطبهم وأشعارهم وقد بدأ الشيخ الكلام عليه بمبحث المجاز اللغوي وهو الذي ينصرف إليه الذهن عند الإطلاق فقال:

إن المجاز اللغوي لفظ على سواء معناه الحقيقي استعملا

يعني أن المجاز اللغوي هو اللفظ الذي استعمل في معنى غير معناه الأصلي الذي وضع له ابتداء، فعلى في البيت بمعنى في مثلها في قوله تعالى {ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها} وقوله سواء لغة في سواء قال ابن مالك:

ولسوى سوى سواء أجعلا . .....إلخ

قال

لابد فيه من قرينة جلت ثم علاقة به قد كملت

يعني أن المجاز لابد فيه من قرينة جلية أي واضحة تمنع من إرادة الأصل الحقيقي وهي الأمر الذي يجعله المتكلم دليلا على أنه أراد باللفظ غير ما وضع له ليصرف ذهن السامع عن المعنى الأصلي إلى المعنى المجازي ولابد مع ذلك من علاقة أي مناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، والمجاز قسمان مفرد ومركب وعلاقته إما مشابهة أو غيرها ولذا قال الشيخ:

فإن تكن ذي شبها فالاستعـــــارة وإلا مرسل قد سمعا

يعني أن العلاقة بين الأصل والفرع في المجاز إن كانت مشابهة من الفرع للأصل في أمر من أموره سمي هذا النوع من المجاز استعارة وإن كانت العلاقة غير شبه سمي المجاز مرسلا وسيأتي تعريفه والكلام عليه في مبحثه الخاص به واللائق في 4سمع للإطلاق ويحتمل عودها على الاستعارة التصريحية والمرسل قال:

والاستعارة لتصريحيه ذات انقسام وإلى مكنيه

يعني أن الاستعارة وهي لغة مشتقة من قولهم استعار المال طلبه عارية واصطلاحا استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرنية صارمة عن إرادة الأصل وليست إلا تشبيها مختصرا لكنها أبلغ منه لأن قولك رأيت أسدا في الدار استعارة أصلها التشبيه حذفت منه المشبه وأداة التشبيه ووجه الشبه وجئت بالقرينة لتدل على أنك تريد بالأسد شجاعا، وأركانها ثلاثة مستعار منه وهو المشبه به ومستعار له وهو المشبه ويقال لهما الطرفان ومستعار وهو اللفظ المنقول وعليه فكل مجاز ينبني على التشبيه فهو استعارة كما ذكر الشيخ قبل وهي تنقسم إلى قسمين أشار لهما بقوله لتصريحيه ذات انقسام وإلى مكنيه يعني أن الاستعارة تنقسم إلى تصريحية أو مصرحة أو تحقيقيه وسميت بذلك للتصريح بلفظ المشبه به عوضا عن لفظ المشبه وإلى مكنية وكناية وسميت بذلك للتكنية عنه بأحد لوازمه ولذا قال:

أولهما أن تطلق المشبها به على مشبه فانتبها

قوله فيما أن فما زائدة وأن مصدرية يعني أن الاستعارة التصريحية هي ذكر لفظ المشبه به وحذف المشبه مستغنى عنه به كقوله تعالى: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور} ففي هذه الآية إطلاق لفظ الظلمات والمراد الهدى ومنه قول المتنبي:

فلم أر قبلي من مشى البحر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

والمراد بهما ممدوح الشاعر، ثم أشار إلى القسم الثاني من قسمي الاستعارة بقوله:

وأختها إثبات للمشبه ما هو يلزم المشبه به

يعني أن أخت الاستعارة التصريحية الاستعارة المكنية وحقيقتها ذكر لفظ المشبه فقط وحذف المشبه به مع الإشارة إليه بإثبات شيء من لوازمه المحققة أو المتخيلة التي بها كماله أو قوامه للمشبه به كقوله:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فإن الشاعر شبه المنية بالسبع بجامع الاغتيال في كل واستعار لفظ السبع للمنية وحذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأظفار على طريق الاستعارة المكنية الأصلية وقرينتها لفظ أظفار فأخذ الوهم في تصوير المنية بصورة السبع فاخترع لها مثل صورة الأظفار ثم أطلق على الصورة التي هي مثل صورة ألأظفار لفظ الأظفار فتكون لفظة أظفار استعارة تخييلية لأن المستعار له لفظ أظفار صورة وهمية تشبه صورة الأظفار الحقيقية وقرينتها إضافتها إلى المنية. وعليه فإن الاستعارة التخييلية قرينة المكنية فهي لازمة لها لا تفارقها لاستحالة الاستعارة بدون قرينة، فتكون أنواع الاستعارة إذن ثلاثة: تصريحية، ومكنية، وتخييلية لكنهم اختلفوا في تعريف كل من المكنية والتخييلية، فمذهب السلف أن المكنية اسم المشبه المستعار في النفس للمشبه به، وأن إثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخييلية فالأظفار في قوله (وإذا المنية أنشبت أظفارها) حقيقة لأنها مستعملة فيما وضعت له، ومذهب القزويني أن المكنية هي التشبيه المضمر في النفس المرموز إليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه، وهذا الإثبات هو الاستعارة التخييلية، ومذهب السكاكي أن المكنية لفظ المشبه مراد به المشبه به، فالمراد بالمنية في قوله (وإذا المنية أنشبت أظفارها) هو السبع بادعاء السبعية لها وإنكار أن تكون شيئا غير السبع بقرينة إضافة الأظفار التي هي من خصائص السبع إليها، والتخييلية عنده ما لا تحقق لمعناه لا حسا ولا عقلا، بل هو صورة وهمية محضة كالأظفار في هذا المثال فإنه لما شبه المنية بالسبع في الاغتيال أخذ الوهم يصورها بصورته ويخترع لها لوازمه كما تقدم. ثم شرع في تقسيم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار فقال:

وهي إلى أصلية تنقسم وتبعية وكل ترسم

يعني أن الاستعارة تنقسم إلى قسمين استعارة أصلية واستعارة تبعية، وإلى تعريف الأصلية منهما أشار بقوله:

فرسم تلك ما في الاسم الجامد أو مصدر ترى بغير زائد

يعني أن رسم أي تعريف الاستعارة الأصلية وتمييزها عن التبعية هو كون المستعار اسما جامدا سواء كان لذات كاستعارة لفظ البدر للجميل أو لمعنى كأسد أو كان مصدرا كالقتل إذا استعير للضرب الشديد، وشمل كلا من التصريحية والمكنية كقوله:

يودون التحية من بعيد إلى فجر من الإيوان بادي

ومنه قوله تعالى: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور} الآية، وقوله تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة} ثم أشار إلى القسم الثاني من قسمي الاستعارة فقال:

فهذه في الفعل أو ما قد جرى مجراه كالوصف وفي الحرف ترى

يعني أن الاستعارة التبعية هي التي استعير فيها لفظ الفعل كقولك نامت همومي عني، أو اسمه كصه الموضوع للسكوت عن الكلام إذا استعمل مجازا في ترك الفعل أو استعير فيها الوصف نحو قولك الجندي قاتل اللص أي ضاربه ضربا شديدا، أو الأسماء المبهمة كأسماء الإشارة الموضوعة في الأصل للإشارة إلى الأمور المحسوسة إذا استعملت مجازا في الإشارة إلى الأمور العقلية أو كان المستعار حرفا كقوله تعالى: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} الآية، قال:

والتبعية لها المكنيه دأبا قرينة ترى جليه

يعني أن الاستعارة التبعية قرينتها دائما الاستعارة المكنية ولا تكون إلا في الوصف والاسم المبهم دون غيرهما من أنواع التبعية كالحرف والفعل كقولهم أذقته لباس الموت ، ثم قال:

وحيثما أجريت ذا اللفظ على إحداهما فأختها منها خلا

يعني أنك إذا أجريت الاستعارة في واحدة من الاستعارتين الأصلية أو من التبعية امتنع إجراؤها في الأخرى ثم أشار إلى تقسيمها باعتبار ذكر الملائم وعدمه فقال:

وهي مرشحة إن تقرن لما كان المشبه به ملائما

يعني أن الإشارة إذا اقترنت بملائم المستعار منه سميت مرشحة نحو {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم} الآية فقد أعير الشراء للاستبدال والاختيار ثم فرع عليهما ما يلائم المستعار منه من الربح والتجارة، وإنما سميت مرشحة لترشيحها وتقويتها بذكر الملائم والترشيح أبلغ من غيره لاشتماله على تحقيق المبالغة بتناسي التشبيه وادعاء أن المستعار له هو نفس المستعار منه لا شيء شبيه به وكأن الاستعارة غير مشبوهة أصلا ثم قال:

وإن قرنتها بما يلائم مشبها تجريدها ملائم

يعني أن الاستعارة إن قرنت بذكر أمر ملائم للمستعار له سميت مجردة وتجريدية نحو اشتر بالمعروف عرضك من الأذى، وإنما سميت بذلك لتجريدها عن بعض المبالغة لبعد المشبه حينئذ من المشبه به بَعْضَ بُعْدٍ وذلك ببعد دعوى الاتحاد الذي هو مبنى الاستعارة، والاستعارة التجريدية هذه هي أضعف أقسامها لما يلزم على ذكر قرينة التجريد من عدم دعوى الاتحاد، قال:

وحيثما من ذا وذلك خلت فإنها مطلقة ما جهلت

يعني أن من أقسام الاستعارة استعارة مطلقة وهي التي لم تقترن بذكر ما يلائم المشبهة ولا المشبه به، وكذا من الإطلاق ذكر ما يلائمهما معا كقول زهير:

لدى أسد شاك السلاح مفرد له لبد أظفاره لم تقلم

فإنه استعار الأسد للرجل الشجاع وذكر ما يناسب المستعار له وهو شاك السلاح وهو التجريد ثم ذكر ما يناسب المستعار منه وهو قوله (له لبد أظفاره لم تقلم) وهو

الترشيح، واجتماع التجريد والترشيح يؤدي إلى تعارضهما وسقوطهما فتكون الاستعارة كأنها لم تقترن بشيء فصارت في رتبة المطلقة وهي بذلك أبلغ من التجريد كما تقدم، ثم قال:

ترشيحها تجريدها لا يعتبر إلا بعيد ما القرينة تقر

يعني أن ترشيح الاستعارة وتجريدها لا يعتر إلا بعد كمال الاستعارة وتمامها وذلك بذكر قرينتها سواء كانت القرينة حالية أم مقالية، ولذا قال:

فلا من التجريد والترشيح قرينة المكنى والتصريح

يعني أن قرينة التصريح لا تعد تجريدا ولا قرينة المكنية تعد ترشيحا، بل لا بد من أمر زائد عليهما وإلا كانت مطلقة.

مبحث المجاز المركب بالاستعارة التمثيلية:

وإليه أشار الشيخ بقوله:

تركيب استعمال في معنى عدا مدلوله الأصلي تمثيلا بدا

يعني أن المجاز المركب بالاستعارة التمثيلية هو تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي بحيث يكون كل من المشبه والمشبهة به هيئة منتزعة من متعدد، وذلك بأن يشبه المتكلم إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بأخرى، ثم يدخل المشبه في الصورة المشبه بها مبالغة في التشبيه ويسمى بالاستعارة التمثيلية وهي كثيرة الورود في الأمثال العربية السائرة كالصيف ضيعت اللبن وقطعت جهيزة قول كل خطيب ونحو إني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وإنما سميت بذلك مع أن التمثيل عام في كل استعارة للإشارة إلى عظم شأنها فكأن غيرها من الاستعارات ليس فيه تمثيل أصلا وهي أبلغ الاستعارات.

تنبيه: الاستعارة التمثيلية إذا فشيت وشاعت وكثر استعمالها تكون مثلا لا يغير مطلقا، يخاطب به المفرد والمذكر وفروعهما بلفظ واحد من غير تغيير ولا تبديل عن

مورده الأول وإن لم يطابق المضروب له في الحال كالصيف ضيعت اللبن فيخاطب به المفرد والمذكر وفروعهما.

باب المجاز المرسل:

وهو أهم أنواع المجاز لأنه المقصود بالذات، وحده أنه الكلمة المستعملة قصدا في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة المشابهة مع قرينة دالة على عدم إرادة الأصل، وسميت بذلك لإطلاقه عن التقييد بعلاقة واحدة مخصوصة لأن له علاقات كثيرة فصلها الشيخ طيب الله ثراه بقوله:

ثم المجاز المرسل العلائق فيه كثيرة وكل رائق

يعني أن المجاز المرسل علائقه كثيرة وكلها حسن مقبول في الاستعمال ثم شرع بذكرها واحدة تلو الأخرى فقال:

كالسببية المسببيه ما كان ما يكون والجزئيه

كلية ما حل والمحل وذا المناخ الركن فيه حـــل

يعني أن من علائق المجاز المرسل السببية وهي كون الشيء المنقول عنه سببا ومؤثرا في غيره وذلك بذكر لفظ السبب وإرادة المسبب نحو قولهم رعينا الغيث، ومنه قوله:

أكلت دما إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

وقوله والمسببيه) يعني أن من علائق المجاز المرسل المسببية وهي كون الشيء المنقول عنه مسببا وأثرا عن غيره وذلك بذكر لفظ المسبب وإرادة السبب عكس ما تقدم نحو {وينزل لكم من السماء رزقا) أي مطرا سببا للرزق. قوله: (ما كان) يعني أن من علائق المجاز المرسل ما كان وهو النظر إلى الماضي وذلك بتسمية الشيء باسم ما كان عليه نحو {وآتوا اليتامى أموالهم} أي الذين كانوا يتامى، قوله: (ما يكون) يعني أن من علائق المجاز المرسل ما يكون وهو النظر إلى المستقبل وذلك

بتسمية الشيء باسم ما يؤول إليه نحو {إني أراني أعصر خمرا} أي عصيرا يؤول أمره إلى خمر قوله: (والجزئيه) يعني أن من علائق الجزئية وهو كون الشيء المذكور ضمن شيء آخر وذلك بذكر لفظ الجزء وإرادة الكل نحو {فتحرير رقبة مؤمنة} الآية، قوله (كلية) يعني أن من علائقه كذلك الكلية، وهي كون الشيء متضمنا للمقصود وغيره، وذلك بذكر لفظ الكل وإرادة الجزء نحو {يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق} قوله: (ما حل) يعني أن من علائق المجاز المرسل الحالِيَة بتشديد اللام وهي كون الشيء حالا في غيره وذلك بذكر لفظ الحال وإرادة المُحَلِ لما بينهما من الملازمة نحو {ففي رحمت الله هم فيها خالدون} قوله (والمحل)يعني أن من علائقه كذلك المحل أي المحلية وهي كون الشيء يحل فيه غيره وذلك بذكر لفظ المحل وإرادة الحال فيه نحو {فليدع ناديه} والمراد من يحل في النادي قوله: (وذا المناخ الركن فيه حلوا) يعني أن المجاز المرسل لأهميته وكثر علائقه أقام بمغناه الأقدمون لأنه المقصود عندهم بالذات وهو أهم أنواع المجاز كما تقدم، ويمكن أن يكون هذا إشارة منه إلى قول كثير عزة:

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

والله تعالى أعلم.

مبحث المجاز العقلي:

وسمي بذلك لأن التجوز فيه فهم من العقل لا من اللغة كما في المجاز اللغوي وإلى تعريفه اصطلاحا أشار بقوله:

إسنادك الفعل ومثل الفعل لغير ما له المجاز الفعلي

يعني أن المجاز العقلي هو إسناد الفعل أو ما في معناه من اسم فاعل أو مفعول أو مصدر إلى غير ما هو له، وإلى مثال ذلك أشار بقوله:

كسبب الفعل أو الزمان أو مصدر أو ظرفه المكان

يعني أن من المجاز العقلي إسناد الفعل إلى سببه الحامل عليه كبنى الأمير المدينة، ومنه قوله:

إني لمن معشر أ فنى أوائلهم قول الكماة ألا أين المحامونا

فإن الشاعر نسب الفعل الذي هو الإفناء إلى قول الشجعان هل من مبارز، وليس ذلك القول بفاعل له ولا مؤثر فيه وإنما هو سبب فقط. ومن أقسامه كذلك إسناد الفعل إلى زمانه كليل قائم ويوم صائم ومنه قوله: (من سره زمن ساءته أزمان) فقد نسب الشاعر المسرة إلى الزمان وهو لم يفعل شيئا من ذلك وإنما كان زمنا له فقط. ومن أنواعه كذلك إسناد الفعل إلى مصدره المشتق منه كقوله:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

فقد أسند الشاعر الجد إلى الجِدِ أي الاجتهاد وهو ليس بفاعل له وإنما هو من فعل الجاد فقط، ومن أنواعه كذلك إسناد الفعل إلى ظرفه المكاني نحو قوله تعالى: {وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم} الآية فقد أسند تعالى الجري إلى الأنهار وهي أمكنة المياه وهي ليست بجارية وإنما الجاري ماؤها، ثم قال:

كذاك أن تبنى للمفعول ما بني للفاعل والعكس انتمى

يعني أن من أنواع المجاز العقلي إسناد ما ركب للفاعل إلى المفعول كقوله تعالى {في عيشة راضية}، ومنه قولهم سرك حديث الوامق أي الموموق أي المحبوب، ومن أنواعه كذلك عكس هذا وهو إسناد ما بني للمفعول إلى الفاعل كجعلت بيني وبين الشر حجابا مستور أي ساترا، وظاهر العبارة أن الحجاب هو المستور مع أنه هو الساتر.

مبحث الكناية:

وهو لغة ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره وهو مصدر كنيت أو كنوت بكذا إذا تركت التصريح به واصطلاحا ما أشار إليه الشيخ طيب الله ثراه بقوله:

لفظ به لازم معناه أريد رسم الكناية به أنا أريد

يعني أن تعريف الكناية في الاصطلاح عندهم هو إطلاق اللفظ وإرادة لازم معناه الذي وضع له نحو زيد طويل النجاد، وقوله (أريد) في الشطر الأول مركب للمجهول ضميره يعود على اللفظ، وقوله (أريد) في آخر البيت مضارع أراد ضميره للناظم وبينهما جناس تام، وقوله (رسم الكناية) أي تعريف لأن الرسم أحد المعرفات قال في السلم:

معرف على ثلاثة قسم حد ورسمي ولفظي علم

ثم قال:

مع جواز كون معناه قصد .....

يعني أن الكناية يجوز فيها عندهم قصد المتكلم معنى اللفظ الحقيقي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته نحو كثير الرماد وعريض الوساد فبإرادة اللازم خرجت الحقيقة وبجواز إرادة المعنى الحقيق خرج المجاز، ولذا جعل بعضهم واسطة بين الحقيقة والمجاز وهي ثلاثة أقسام أشار لها الشيخ بقوله:

..... عن نسبة وصف وموصوف ترد

قوله عن (نسبة وما عطف عليه) صلة لترد، يعني أن اللفظ المذكور قد يرد كناية عن نسبة أمر لآخر إثباتا أو نفيا كقوله:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

وقد جعل الشاعر هذه الأشياء الثلاثة في المكان المختص بالممدوح وذلك يستلزم إثباتها له، وأظهر علامة لهذه الكناية أن يصرح فيها بالصفة كما في بيت الشاعر أو بما يستلزم الصفة كقولنا في ثوبي زيد أسد فإنه كناية عن نسبة الشجاعة إليه، وقوله (وصف) يريد به الإشارة إلى النوع الثاني من أنواع الكناية وهو أن الكناية باللفظ قد تكون عن صفة لازمة لمعناه كقول الخنساء:

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد إذا ما شتا

فإنها أرادت أن تصفه بأنه شجاع عظيم جواد في قومه فعدلت عن التصريح بهذه الصفات إلى الإشارة إليها والكناية عنها لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول قامة صاحبه، ويلزم من طول الجسم الشجاعة عادة، ويلزم من كونه رفيع العماد أن يكون عظيم المكانة في قومه وعشيرته، كما أنه يلزم من كثرة الرماد كثرة حرق الحطب ثم كثرة الطبخ ثم كثرة الضيوف ثم الكرم، وقوله: (وموصوف ترد) يعني به أن الكناية باللفظ قد تكون عن موصوف وسواء كان بمعنى واحد كقوله:

فلما شربناها ودب دبيبها إلى موطن الأسرار قلت لها قف

فموطن الأسرار كناية عن القلب أو كان مجموع معان كقوله:

الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان

فإن الشاعر أراد وصف ممدوحيه بأنهم يطعنون القلوب وقت الحرب فانصرف عن التعبير بالقلوب إلى ما هو أملح وأوقع في النفس وهو مجامع الأضغان لأن القلوب تفهم منه لكونها مجتمع الحقد والبغض والحسد، ويشترط في هذه الكناية أن تكون الصفة أو الصفات مختصة بالموصوف ولا تتعداه ليحصل الانتقال منها إليه.

تتمة: اعلم أن الكناية من ألطف أساليب البلاغة وأدقها وهي أبلغ من الحقيقة والتصريح لأن الانتقال فيها يكون من الملزوم إلى اللازم فهي كالدعوى ببينة فكأنك تقول في زيد كثير الرماد زيد كريم لأنه كثير الرماد وكثرة الرماد تستلزم كثرة إحراق الحطب إلخ، وكيف وهي تمكن الإنسان من التعبير عن أمور كثيرة يتحاشى المتكلم الإفصاح عنها إما احتراما للمخاطب أو إبهاما على السامعين أو للنيل من خصمه دون أن يدع له سبيلا عليه أو لتنزيه الآذان عما تنبوا عن سماعه، إلى غير ذلك من الأغراض واللطائف ثم قال:

تم هنا البيان بالبيان وتظهر المعاني للمعاني

قوله (تم هنا البيان) أي علمه، وقوله (بالبيان) أي الإظهار والإيضاح، قوله (وتظهر) بالتركيب للمجهول أي تذكر إن شاء الله تعالى قوله (المعاني) جمع معنى

وهو ما يقصد من الكلام (للمعاني) أي علمه يعني أن كلامه على فن البيان قد انتهى بكلامه عن الكناية وأنه سيبدأ الكلام على الفن الثاني الذي هو علم المعاني وهو أحوال وقواعد يعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون بها مطابقا لمقتضى الحال بحيث يكون وفق الغرض الذي سبق له فذكاء المخاطب حال تقتضي إيجاز القول منك وإيجازك مطابقة لمقتضى الحال وغباوته حال تقتضي الإطناب منك وإطنابك مطابقة لمقتضى الحال فإن عكست في الصورتين كان كلامك غير بليغ وموضوعه اللفظ العربي من حيث إفادته المعاني الثواني كرد الإنكار ودفع الشك التي هي الأغراض المقصودة للمتكلم من جعل الكلام مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق مقتضى الحال، وفائدة معرفة إعجاز القرآن الكريم من جهة ما خصه الله تبارك وتعالى به من جودة السبك وحسن الوصف وبراعة التراكيب ولطف الإيجاز وما اشتمل عليه من سهولة التركيب وجزالة الكلمات وعذوبة الألفاظ وسلامتها إلى غير ذلك من محاسنه التي أقعدت العرب عن مناهضته وأحارت عقولهم أمام فصاحته وبلاغته والوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في منثور كلام العرب ومنظومه لكي يحتذى حذوهم وينسج على منوالهم ويفرق بين جيد الكلام ورديئه وواضعه هو الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة أربعمائة وإحدى وسبعين بتقديم الموحدة للهجرة في كتابه المشهور «أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز» واستمداده من القرآن العظيم والحديث النبوي وكلام العرب، والمعاني في الاصطلاح هو التعبير باللفظ عما يتصوره الذهن أو الصورة الذهنية من حيث تقصد اللفظ، وحده السيوطي في ألفيته بقوله:

وحده علم به قد تعرف أحوال لفظ عربي يؤلف

مما بها تطابق لمقتضى حال وحد سالم ومرتضى

وبدأ الشيخ الكلام عليه بتعريف الخبر والإنشاء لكونهما مادتي هذا الفن مقدما الكلام على الخبر لشرفه على الإنشاء فقال:

اللفظ إما خبر ويعرف بالصدق طورا وبضد يوصف

يعني أن اللفظ المركب المفيد فائدة يحسن السكوت عليها ينقسم قسمين أشار إلى أولهما بقوله(إما خبر) وعرفه بأنه ما احتمل الصدق وضده الذهول الكذب وسيأتي تعريفهما وإمكان وصفه بكل من الأمرين إما لذاته فقط أي بغض النظر عن خصوص المخبر أو المخبر به فخرج الخبر المقطوع بصدقه عقلا أو نقلا، وكذا المقطوع بكذبه لهما، وإن شئت فقل في تعريفه أنه الكلام الذي يتحقق مدلوله في الخارج بدون النطق به كنفع العلم وضرر الجهل قبل قولنا العلم نافع والجهل ضار، ثم أشار إلى تعريف الصدق فقال:

ما طابق الواقع هو الصدق وضده الواقع لا يوافق

يعني أن الصدق هو مطابقة الخبر للواقع ولو كان الاعتقاد بخلاف ذلك نحو العلم نافع وذلك بأن تكون نسبته الكلامية وهي ثبوت النفع المفهوم من الجملة السابقة مطابقة للنسبة الخارجية التي هي الواقع. قال: (وضده الواقع لا يوافق) يعني ضد الصدق الذي هو الكذب يعرف عندهم بعدم مطابقة الخبر للواقع ولو كان الاعتقاد بخلاف ذلك نحو الجهل نافع، وكذبه لكون نسبته الكلامية التي هي ثبوت النفع للجهل غير مطابقة لنسبته الخارجية التي هي الواقع.

تنبيه: علم من هذا أن للخبر نسبتين نسبة تفهم من الخبر ويدل عليها الكلام وتسمى النسبية الكلامية، ونسبة أخرى تعرف من الخارج بقطع النظر عن الخبر وتسمى النسبة الخارجية، فصار ما وافق الواقع صدقا وما خالفه كذبا، وهذا من أصح الأقوال فيهما ومن أدلته حديث «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» فإنه دل على انقسام الكذب إلى متعمد وغيره. القول الثاني أن الصدق مطابقة الخبر لاعتقاد المخبر ولو خالف الواقع والكذب مخالفته له ولو كان موافقا للواقع ومن أدلته قوله تعالى حاكيا عن المنافقين: {قالوا نشهد إنك لرسول الله}الآية، الثالث أن الصدق المطابقة للواقع والاعتقاد معا والكذب مخالفتهما وغير ذلك وسائط، ثم أشار إلى قسم الخبر وهو الإنشاء فقال:

وضده الإنشا ولا يتصف بما به صاحبه متصف

يعني أن ضد الخبر وحبذا لو أظهر لطول الفصل هو الإنشاء وتعريفه مخالف لتعريف الخبر إذ الأشياء تعرف بأضدادها فلا يوصف بما وصف به الخبر من احتمال الصدق والكذب إذ لا يصح أن يقال لقائله إنه صادق أو كاذب كقولنا للشخص اتق الله تعالى، ثم قال:

والكل جملة فمسند إليه هو الذي يكون محكوما عليه

وما به حكم هو المسند أمـــدنا من الإلـه الســـند

يعني أن كلا من الخبر والإنشاء يتألف من جملة مؤلفة من جزأين أحدهما مسند إليه والآخر مسند وهما ركناها والنسبة بينهما تسمى إسنادا وهو ضم كلمة هي المسند إلى أخرى هي المسند إليه على وجه يفيد الحكم عليها بها أو نفيها عنها، فالمسند إليه هو المحكوم عليه ويسمى مخبرا عنه وهو أربعة المبتدأ ذو الخبر والفاعل ونائبه وأسماء النواسخ، والمسند هو المحكوم به ويسمى مخبرا به وهو خمسة الخبر والفعل التام واسم الفعل والمبتدأ الوصف المستغني بمرفوعه عن الخبر وأخبار النواسخ والمصدر النائب عن الفعل، وأما قوله (أمدنا من الإله السند) فجملة خبرية اللفظ إنشائية المعنى قصد بها الدعاء وتتميم البيت مشتملة على مسند هو الإمداد ومسند إليه وهو السند، ومن معانيه لغة المعتمد وهو أنسبها هنا فيكون المراد به سلسلة الشيوخ لأنهم معتمدنا في العلوم والله تعالى أعلم.

تنبيه: اعلم أن المسند والمسند إليه يتنوعان إلى أربعة أقسام لأنهما إما أن يكونا كلمتين حقيقة كالله بر ومحمد نبينا، الثاني أن يكونا كلمتين حكما نحو لا إله إلا الله ينجو قائلها من النار، أي توحيد الإله منجاة من النار، الثالث أن يكون المسند إليه كلمة حكما نحو {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة} أي ومن آياته رؤيتك الأرض خاشعة، الرابع أن يكون المسند كلمة حكما نحو زيد أبوه قائم أي زيد قائم الأب، ثم قال:

وما يزيد غير وصل أو مضاف إليه ذلك إلى القيد يضاف

يعني أن ما زاد على الركنين السابقين للجملة وهما المسند والمسند إليه غير صلة الموصول والمضاف إليه غيره من مفعول وحال وتمييز وظرف وغيرها يسمى قيدا لتلك الجملة زائدا على تكوينها لأغراض مختلفة باختلافها سيذكر بعضها ضمن هذا الفن، ثم شرع في بيان المقاصد التي من أجلها يلقى الخبر فقال:

لغرضين الأصل في إلقا الخبر إفادة المخاطب الحكم المقر

أو أن تفـيده بعلمك بما تضمن الخبر علما محكما

قوله لغرضين متعلق بما بعده وتقديمه يؤذن بالاختصاص يعني أن الأصل في إلقاء المتكلم الخبر إلى السامع أحد أمرين إما إفادته الحكم الذي تضمنته الجملة إذا كان جاهلا له ويسمى فائدة الخبر كقولنا الدين النصيحة، وإما أن يفيده بأنه عالم بمدلول الخبر كقولك لمن فعل أمرا وأخفاه عنك ثم علمته من غيره أنت فعلت كذا، وإلى تسميتهما عند أهل الفن أشار بقوله:

فائدة الخبر الاول وسم لازمها سمي لثانيه رسم

يعني أن الأول يسمى عندهم فائدة الخبر لأنه أفاد السامع ما كان يجهله، قلت وهذا التعليل يشاركه فيه الثاني لأن لازم فائدة الخبر كان مجهولا للمخاطب قبل إلقاء الخبر إليه والله تعالى أعلم، وأما الثاني فإنه يسمى لازم فائدة الخبر لأنه يلزم في كل خبر أن يكون المخبر به بكسر الباء عنده علم أو ظن به عادة وهذا على مقتضى ظاهر الحال وقد يقتضي الحال العدول عن مقتضى الظاهر فيورد الكلام على خلافه لاعتبارات يلحظها المتكلم وسلوك هذه الطريقة شعبة من شعب البلاغة، وإلى ذلك أشار الشيخ بقوله:

هذا وقد يلقى لأغراض أخر تفهم من سياق ذلك الخبر

كالحث الاسترحام أو إظهاري تحـسر ضعف بلا تماري

يعني أن الخبر قد يلقى لأغراض أخرى خارجة عن مقتضى ظاهر الحال تفهم من سياق الخبر لما يحتف به من القرائن الدالة عليها غالبا كالحث مثلا وهو تحريك

الهمة إلى ما يلزم أو يستحب تحصيله نحو ليس سواء عالم وجهول، وكقول طاهر بن الحسين:

وليس أخو الحاجات من بات نائما ولكن أخوها من يبيت على وجل

وكالاسترحام وهو الاستعطاف بذكر حال الشيء بما يدعو إلى الشفقة عليه والبر به والعطف عليه نحو {رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير} وكقول يحيى البرمكي يخاطب الرشيد:

إن البرامكة الذيـــن رموا لديك بداهيه

صفر الوجوه عليهم خلع المـذلة باديه

إنه لا يريد بهذا الشعر أن يخبر الرشيد بما وصل إليه حاله وحال ذوي قرباه من الذل والصغار لأن الرشيد هو الذي أمر بذلك فهو أولى بأن يعلمه، ولا يريد كذلك أن يفيده بأنه عالم بحال نفسه وذوي قرابته ضرورة، بل إنما ذكر هذا استعطافا واسترحاما للرشيد رجاء شفقته وإصغائه إليه فيعود إلى البر به والعطف عليه، ومن أغراض الخروج عن الظاهر لإظهار التحسر نحو {إني وضعتها أنثى} وكقول بعضهم يرثي ابنه:

لما دعوت الصبر بعدك والأسى أجاب الأسى طوعا ولم يجب الصبر

فإن ينقطع منك الرجـــاء فإنـه سيبقى عليك الحـــزن ما بقي الدهر

فإن الشاعر لا يقصد بها إلا إظهار التحسر والأسى على فقد ولده وفلذة كبده، ومن أعراضه كذلك إظهار الضعف والخشوع كقول زكرياء عليه السلام {رب إني وهن العظم مني} الآية ثم شرع يبين ضروب الخبر باعتبار التوكيد وعدمه وذلك تابع لحال المخاطب فقال:

الخبر الق خاليا لخال ذهنا من التوكيد يا ابن خالي

وسمه ابتدائيا..... .....

قوله الخبر بالنصب مفعول مقدم وخاليا حال منه ومن التوكيد صلة لخاليا وابن خالي تتميم للبيت فقط يعني أن المخاطب إن كان خالي الذهن من الخبر غير متردد فيه ولا منكر له ولم يقدم له مشعر به وجب إلقاء الخبر إليه خاليا من التأكيد نحو قوله تعالى: {المال والبنون زينة الحياة الدنيا} الآية، وهذا النوع من الخبر يسمى ابتدائيا ويستعمل حين يكون المخاطب خالي الذهن من مدلول الخبر فيتمكن فيه لمصادفته إياه خاليا قال:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ثم أشار إلى الضرب الثاني من أضرب الخبر بقوله:

..... وأكد للمتردد بلا تعدد

وسمه طلبيا..... .....

يعني أن المخاطب إن كان متردد الذهن في الخبر طالبا الوصول إلى معرفته والوقوف على حقيقته يحسن تأكيد الكلام الملقى إليه بمؤكد واحد تقوية للحكم ليتمكن من نفسه ويطرح الخلاف وراء ظهره نحو إن الحق منتصر لا محالة، وهذا الضرب يسمى طلبيا لما تقدم في ذهن المخاطب من الشك في مدلول الخبر وبغية التثبت من صدقه، ثم أشار إلى الضرب الثالث فقال:

وسمه طلبيا والخبر لمنكر توكيده يكرر

يعني أن المخاطب إذا كان منكرا لصحة مدلول الخبر المراد إلقاؤه إليه معتقدا خلافه يجب توكيد الكلام له بمؤكدات على حسب إنكاره قوة وضعفا نحو إن الله غفور رحيم أو إنه لغفور رحيم أو والله إنه لغفور رحيم، وسواء كان الخبر مثبتا كما مثلنا أو كان منفيا نحو ليس زيد بقائم أو أنه ليس بقائم أو والله إنه ليس بقائم، وهذا الضرب يسمى إنكاريا كما قال(وسمه إنكاريا) وإنما سمي بذلك لما تقدم إلقاؤه من إنكار المخاطب اعتقاده المخالف ثم أشار بقوله:

وسمه إنكاريا تجري على ما يقتضيه ظاهر وقد خلا

إلى أنك إن فعلت ما تقدم كان ذلك إجراء للخبر وإخراجا له على مقتضى ظاهر الحال، وذلك لأنه لما كان الغرض من الكلام الإيضاح والإظهار وجب أن يكون المتكلم مع المخاطب كالطبيب مع المريض يشخص حالته أولا ثم يعطيه الدواء على حسبها فكذا الكلام حقه أن يكون بقدر الحاجة لا زائدا فيكون عبثا ولا ناقصا فيخل بالغرض، ولهذا اختلفت صورة الخبر في أساليب اللغة باختلاف أحوال المخاطب الذي تعتريه حالات ثلاث كما تقدم، وقوله (تجري) بتاء الخطاب للمفرد المذكر مجز وما جوابا للأمر لسقوط الفاء قال ابن مالك:

وبعد غير النفي جزما اعتمد أن تسقط الفا والجزاء قد قصد

والياء فيه على حد قوله:

لم يأتيك والأنباء تنمي لما لاقت لبون بني زياد

ولولا أن الياء بخط الشيخ لحذفناها لاستقامة البيت مع حذفها، ثم قال:

وقد يجي على خلاف المقتضى لنكتة تأتي لأمر عرضا

قوله يجي بحذف الهمزة تخفيفا على لغة تميم قال ابن بون:

وبعضهم يحذف همزة يجي يسو ويستحي بيستحيي يجي

يعني أن الخبر قد يجري على خلاف مقتضى الظاهر لنكتة أي اعتبار من اعتبارات يلحظها المتكلم فيجري الكلام عل حسبها لكون ذلك شعبة من شعب البلاغة وإلى بعض تلك النكت أشار بقوله:

فيجعل الخالي كمن ترددا إذ في الكلام ما لحكم أرشدا

يعني أن من النكت الداعية إلى إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر تنزيل خالي الذهن من الخبر منزلة السائل المتردد إذا تقدم في الكلام ما يشير إلى حكم الخبر كقوله تعالى: {ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون} فمدخول إن مؤكد لمضمون ما تقدم إشعاره بالتردد فيما تضمنه مدخولها قال:

ويجعل المقر مثل المنكر إن سمة النكر عليه تظهر

يعني أن من تنك النكت أيضا تنزيل العالم بفائدة الخبر أو لازمها أو هما معا منزلة الجاهل بذلك لعدم جريه على موجب علمه فيلقى له الخبر مؤكدا كما يلقى للمنكر كقولنا لمن يعلم وجوب الصلاة ولا يصلي إن الصلاة واجبة توبيخا له على عدم العمل بمقتضى العلم، ومنه:

جاء شقيق عارضا رمحه إن بني عمك فيهم رماح

ثم قال:

ويجعل المنكر مثل من أقر إذا دليل ذا الحكم استقر

يعني أن من تلك النكت تنزيل المنكر منزلة المقر فيلقى إليه الخبر خاليا من المؤكدات إذا كان للخبر براهين واضحة تستلزم عدم إنكاره لو تأملها المخاطب ارتدع وزال عنه إنكار الحكم نحو قوله تعالى: {وإلهكم إله واحد} ومنه قولنا للكافر الإسلام حق لما للأمرين من براهين ساطعة وحجج واضحة.

تنبيهان: الأول قد يؤكد الخبر لشرف الحكم وتقويته مع أنه ليس فيه تردد ولا إنكار ولا تنزيل مخاطب منزلة أحدهما كقوله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده» الحديث. الثاني علم مما تقدم أن الحال هو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفا بكيفية ما سواء كان ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع أو كان ثبوته بالنظر إلى ما عند المتكلم كتنزيل المنكر والمتردد منزلة غيرهما، وأن ظاهر الحال هو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع، فكل كيفية اقتضاها ظاهره الحال اقتضاها الحال، وليس كل كيفية اقتضاها الحال اقتضاها ظاهره فتأمل، ثم قال:

هذا وللتوكيد ألفاظ تؤم إن وأن اللام نون والقسم

وأحرف التنبيه أما الشرطيه وزائد الحروف أيضا فادريه

أشار طيب اله ثراه بهذه الأبيات إلى أن لتوكيد الجمل الخبرية أدوات كثيرة وأشهرها إن بكسر الهمزة وفتحها بتشديد النون ولام الابتداء ونوني التوكيد والقسم وأحرف التنبيه، وأما الشرطية والحروف الزائدة في الاسم والفعل. **قلت**: بقي عليه من المؤكدات كذلك اسمية الجملة وضمير الفصل والشأن وتقديم الفاعل المعنوي والتكرار وإنما وسوى وقد.

باب الإنشاء:

أي في حقيقته وتقسيمه وهو لغة الإيجاد واصطلاحا كلام لا يحتمل صدقا ولا كذبا لذاته أي بقطع النظر عما يستلزمه نحو اغفر وارحم فلا ينسب إلى قائله صدق ولا كذب، وإن شئت فقل هو ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا إذا نطقت به لأن طلب الفعل في افعل والكف في لا تفعل والمحبوب في التمني والفهم في الاستفهام والإقبال في الأمر كلها أمور لم تحصل إلا بنفس الصيغ المتلفظ بها وإلى تقسيمه أشار بقوله:

لطلبي ولغير طلبي ينقسم الإنشا وقسم الطلب

قوله لطلبي صلة لقوله ينقسم وما بعده عطف عليه، يعني أن الإنشاء ينقسم إلى قسمين الأول منهما طلبي وهو المبحوث عنه في علم المعاني لما يمتاز به من لطائف بيانية ستراها في ضمن هذا التأليف إن شاء الله تعالى، وأنواعه خمسة الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء، وإنما سمي طلبيا لأنه يستدعي مطلوبا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب لأن طلب الحاصل لا يليق فإن استعمل شيء من صيغه لطلب حاصل امتنع إجراؤها على ظاهر معانيها الحقيقية ويتولد من تلك الصيغ ما يناسب المقام كطلب دوام الإيمان والتقوى في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا} الآية وقوله تعالى: {يا أيها النبيء اتق الله} الآية وهلم جرا.

القسم الثاني من أقسام الإنشاء غير طلبي وهو ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ويكون بصيغ المدح والذم وصيغ للعقود والقسم والتعجب والرجاء كما

سيأتي وقد يكون برب ولعل وكم الخبرية، ولا تبحث عنه علماء البلاغة لأن أكثر صيغه في الأصل إخبار نقلت إلى الإنشاء، ثم قال:

....(وقسم الطلب)

منه هو استدعاء مطلوب فقد في الوقت بالأمر أو النهي عهد
كذا بالاستفهام والنداء وبالتمني دون ما امتراء
وغيره لا يقتضي مطلوبا بالمدح والذم يرى مصحوبا
وبالتعجب وأفعال الرجا وقسم وصيغة العقد يجا

تصور معنى الأبيات واضح مما تقدم، وقوله بالمدح صلة لقوله يرى مصحوبا وما بعده عطف عليه، وصيغ المدح نعم وما جرى مجراها نحو حبذا والأفعال المحولة إلى فعُل بضم العين كسرو الرجل وضرب أو ما ينوب عنها كطاب زيد نفسا، وصيغ الذم بئس ولا حبذا وساء والأفعال المحولة كخبث زيد أصلا، والتعجب يكون قياسا بصيغتي ما أفعله وأفعل به، وسماعا بغيرهما نحو لله دره فارسا، «يا جارتا ما أنت جاره» ومنه قوله تعالى: {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم} الآية، وصيغ الرجاء وهي عسى واخلولق وحرى نحو عسى الله أن يغفر لنا والقسم يكون بالباء الموحدة والواو والتاء المثناة من فوق وبغيرها نحو لعمرك، وصيغ العقود كوهبت وبعت وآمنت وتبت ومضارعها كماضيها، وقد تكون بالجملة الاسمية قليلا نحو أنا بائع وفتاي حر مثلا، ثم انتقل إلى تعريف معاني ضروب الإنشاء الطلبي فقال:

وطلب الفعل بالاستعلاء الامر الذي من أضرب الإنشاء

يعني أن حد الأمر الذي تقدم أنه من أنواع الإنشاء الطلبي هو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الإلزام وبهيئة الاستعلاء بأن يعد الآمر نفسه عاليا لمن هو أقل منه شأنا سواء كان عاليا في نفس الأمر أم لا، ولهذا نسب إلى سوء الأدب إن لم يكن عاليا وقيل بغير الاشتراط وهو الصحيح عندهم وألفاظه أربعة أشار لها بقوله:

صيغ الامر نحو صه ونحو قم ندلا زريق وكذاك لتقم

يعني أن صيغ الأمر نحو صه من كل اسم فعل بمعنى الأمر كصه ومه وآمين ولو بالنقل كبلْه وعليك ودونك وإليك، ومن صيغه نحو قم من كل فعل أمر متصرفا كان كقم وقل او غير متصرف كهب وتعلم، ومنها كذلك المصدر الثابت عن فعله نحو ندلا وضربا والتمثيل بقوله ندلا زريق إشارة إلى قوله:

يمـرون بالدهنا خفافا عيابـــهـم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

على حين ألهى الناس جل أمورهم فنــدلا زريق المال ندل الثعالب

من صيغ الأمر كذلك نحو لتقم من كل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر نحو {لينفق ذو سعة من سعته} والتمثيل بقوله لتقم إشارة إلى قول الشاعر:

لتقم أنت يا ابن خير قريش كي لتقضي حوائج المسلمينا

وبهذا تعلم أن الأمر صيغه أربع هي: فعل الأمر واسمه والمجزوم بلامه والمصدر النائب عنه، وقد تخرج هذه الصيغ عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال وإلى ذلك أشار الشيخ بقوله:

ولمعان أخر تنصرف صيغه من السياق تعرف

يعني أن صيَغ الأمر السابق ذكرها قد تستعمل في معان كثيرة غير الأمر وكلها يعرف من سياق الكلام، وقد أشار الشيخ إلى تسعة من تلك المعاني بقوله:

يـــــأتي للارشـــــاد وللـــــدعاء والالتمـــــاس دونمـــــا امتـــــراء

تســـــوية تخييـــــر أو تجـــــويزي تمـــــن التهديـــــد والتعجيـــــز

يعني أن من المعاني التي تأتي لها صيغة الأمر الإشارة كقوله تعالى: {فكتبوه و ليكتب بينكم كاتب بالعدل} وقوله ﷺ: «عليكم بالأسود منه» ومنها كذلك الدعاء كقوله تعالى: {رب أوزعني أن اشكر نعمتك } ومنها الالتماس كقولك لصديقك أعطني القلم، ومنها التسوية كقوله تعالى: {اصبروا أو لا تصبروا} ومنها التخيير كقولك لابنك تزوج هند أو أختها، ومنها التجويز وهو الإباحة نحو {كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض} الآية، والفرق بين التخيير والإباحة إمكان الجمع في

الإباحة كجالس الحسن وابن سيرين وامتناعه في التخيير كما في المثال قبل ومنها التمني كقوله:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ومنها التهديد كقوله تعالى {اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير} الآية، ومنها التعجيز كقوله تعالى {فاتوا بسورة من مثله} الآية، وبقي على الشيخ من معانيها الإكرام والامتنان والإهانة والدوام والاعتبار والإذن والتكوين والتأديب والتعجب والندب، وقد أنهاها بعضهم إلى ثمان وعشرين معنى، ثم أشار إلى مبحث النهي وهو النوع الثاني من أنواع الإنشاء الطلبي فقال:

النهي هو طلب الكف بلا تفعل وذي الصيغة عنها ما خلا

قوله هو طلب بتشديد الواو مثلها في قوله:

وإن لساني شهدة يشتفى بها وهو على من صبه الله علقم

يعني أن من أضرب الإنشاء النهي وهو طلب الكف عن الفعل ممن هو أقل شأنا من المتكلم مع الإلزام، وله صيغة واحدة هي المضارع المقرون بلا الناهية، وقد تخرج صيغته عن معناها" إلى معان أخرى كثيرة تفهم من سياق الكلام وقرائن أحواله كما أشار له بقوله:

وهذه الصيغة أيضا قد تجي لغير نهي بالقرائن حجي
كالالتماس والدعاء والتمن الارشاد والتوبيخ والتيئيس عن
كذلك التهديد والتحذير والله أعلم هو الخبير

يعني أن الصيغة التي هي لا تفعل قد تجيء في الكلام لنكتة بلاغية لغير النهي وذلك يفهم من قرائن الأحوال، فمن تلك المعاني التي قد يفيدها النهي الالتماس كقولك لصديقك لا تتوانى في طاعة الله تعالى، ومنها الدعاء كقوله تعالى{ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}الآية، ومنها التمني كقوله يا ليل طل يا نوم زل يا صبح

لا تطلعن، وكقوله يا ليلة الأنس لا تنقضي، ومنها الإرشاد كقوله تعالى: {لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم}، ومنها التوبيخ كقوله:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ومنها التيئيس أي التقنيط كقوله تعالى: {لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم} ومنها التهديد كقولك للولد أو الخادم لا تطع أمري ومنها التحذير كقولك لهما وقد أمرتهما بشيء لا تعصيا أمري، وأما قوله والتيئيس عن ففعل ماض بمعنى عرض، وقوله والله أعلم هو الخبير فجملة خبرية تتميم للبيت فقط. وبقي عليه كونها لبيان العافية كقوله تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا....} الآية، وقوله: {ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون} وكونها للدوام كقوله تعالى: {لا تحزن إن الله معنا} وكونها للكراهة نحو لا تلتفت في صلاتك، وكونها للتحقير نحو قوله:

لا تطلب المجد إن المجد سلمه صعب وعش مستريحا ناعم البال

والله تعالى أعلم، ثم أشار إلى مبحث الاستفهام وهو الضرب الثالث من أضرب الإنشاء الطلبي فقال:

وطلب العلم بما لا يعلم من قبل الاستفهام مهما يرسم

يعني أن تعريف الاستفهام هو طلب العلم بما لم يكن معلوما للمتكلم قبل سؤاله عنه بإحدى أدوات الاستفهام العشر الآتي ذكرها، وتنقسم بحسب الطلب إلى ثلاثة أقسام: ما يطلب به التصور والتصديق وهو الهمزة، وما يطلب به التصديق فقط وهو هل، وما يطلب به التصور فقط وهو بقية الأدوات وإلى ذلك أشار الشيخ بقوله:

وأدواته كثيرة ترى كالهمز واطلبن بها التصورا

إدراك مفرد..... .....

يعني أن الهمزة يطلب بها التصور ومعناه إدراك المفرد وهو الوصول إلى حقيقته ولو بوجه ما، قال في السلم:

(إدراك مفرد تصور اعلم) والمراد بالمفرد ما ليس إيقاع نسبة أو انتزاعها وأما قوله:

.....ويتلوه الذي يسأل عن بالمعادل حذي

فيعني به أن من خصائص الهمز فيل حال طلب التصور بها عن باقي الأدوات إنه يتلوها المسئول عنه مقرونا بمعادله، سواء كان مسندا إليه نحو {أأنت فعلت هذا} أم زيد أم مسندا نحو أراغب أنت في الأمر أم راغب عنه، أم مفعولا نحو إياي تقصد أم سعيدا، أم حالا نحو أراكبا حضرت أم ماشيا، أم ظرفا نحو أيوم الخميس قدمت أم يوم الجمعة، وتسمى هذه الهمزة متصلة وقد يستغنى عن ذكر المعادل معها نحو {أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم} الآية، وأما قوله:

واطلب بها التصديق علم النسبة ثم المعادل هنا لا تثبت

فيعني به أن الهمزة يطلب بها كذلك التصديق الذي هو علم النسبة أي إدراك وقوع نسبة تامة بين المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها بحيث يكون المتكلم خالي الذهن مما استفهم عنه في جملته مصدقا للجواب بنعم في الإثبات أو بلا في النفي، قال في السلم (ودرك نسبة بتصديق وسم) ويكثر التصديق في الجمل الفعلية كقولك أحضر الأمير، ويقل التصديق في الجمل الاسمية نحو أعلي مسافر، والهمزة في هذه الحالة لا يذكر معها المعادل منعا كما رأيت ولذا إن جاءت بعدها أم قدرت منقطعة وتكون بمعنى بل كقوله:

ولست أبالي بعد فقدي مالكا أموتي ناء أم هو الآن واقع

ثم قال:

لطلب التصديق حسب هل ولا يذكر منعا معها المعادلا

يعني أن حرف هل يطلب به التصديق وهو وقوع النسبة أولا وقوعها فقط دون التصور، ولذاك منع ذكر المعادل معها بعد أم المتصلة نحو هل سعيد قام أم سعد، لأن وقوع المفرد الذي هو سعد بعد أم الواقعة في حيز الاستفهام دليل على أن أم متصلة وهي لطلب تعيين أحد الأمرين، ولا بد من علم أصل الحكم بها حينئذ، وهل

لا يناسبها ذلك لأنها لطلب الحكم فقط فالحكم فيها غير معلوم وإلا لم يستفهم عنه بها، وحينئذ يؤدي الجمع بين هل وأم إلى التناقض.

تنبيهان: الأول هل هذه كالسين وسوف تخلص المضارع للاستقبال فلا يقال هل تصدق جوابا لمن قال أحبك الآن، بل يقال له أتصدق، ولأجل اختصاصها بالتصديق تخليصها المضارع للاستقبال قوى اتصالها بالفعل لفظا أو تقديرا نحو هل يجيء علي، أم هل علي يجيء، فإن عدل على الاسم لإبراز ما لم يحصل في صورة الحاصل دلالة على كمال العناية بحصوله كان هذا العدول أبلغ في إفادة المقصود نحو قوله تعالى {فهل أنتم شاكرون} وذلك لأن الفعل بعد هل لازم والعدول عنه يدل على قوة الداعي لذلك. الثاني: هل هذه نوعان بسيطة ومركبة فالبسيطة هي التي يستفهم بها عن وجود شيء في نفسه أو عدم وجوده كقولنا هل العنقاء موجودة، أو هل الخل الوفي موجود، والمركبة هي التي يستفهم بها عن وجود شيء لشيء أو عدم وجوده له نحو هل النبات حساس، ثم قال مشيرا إلى بقية الأدوات:

تعيين من يعقل من له وما لشرح الاسم أو حقيقة السما

يعني أن كلمة من موضوعة للاستفهام التصوري ويطلب بها تعيين أفراد العقلاء غالبا نحو من فتح مصر ومنْ غير الغالب قوله:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

وأن كلمة ما يستفهم بها عن حقيقة الاسم لغير عاقل غالبا نحو ما العسجد فيقال في الجواب إنه الذهب، كما يستفهم بها كذلك عن حقيقة المسمى نحو ما الشمس فيقال في الجواب كوكب نهاري، ثم قال:

متى بها تعيين ما يستقبل بطلب حيث خطبه يهول

يعني أن متى من أدوات الاستفهام التصوري وهي موضوعة لطلب تعيين الزمان المستقبل إذا كان أمره مهولا أي مفخما. **قلت**: وهذا على ظاهر عبارة الشيخ رضي الله تعالى عنه فقط لأذكر متى في هذا البيت مقترنة بهذا الحكم لا شك أنه سبق قلم

أو اتباع لأصل فاسد حمل عليه ذهول منه ولولا أني رأيتها بخط الشيخ لأزلتها مباشرة وجعلت البيت هكذا:

لزمن متى وأيان لما منه يكون آتيا مفخما

لأن متى يطلب بها تعين الزمان ماضيا كان كمتى جئت وجوابه أمس مثلا، أو مستقبلا كمتى تسافر وجوابه غدا، ومنه {متى نصر الله} أو حاليا كمتى تقرأ وجوابه الآن، أما الحكم المذكور فهو لأيان على خلاف فيه نحو {أيان يوم القيامة} وجوابه {يومهم على النار يفتنون} الآية قال السيوطي:

وأيان لذي استقبال قيل وللتفخيم في الأهوال

والشيخ لم يذكر أيان ضمن الأدوات الاستفهامية وهو ما يؤكد أن في نسخة أصله فساد إما بحذف أو نقص أو زحلقة والعلم عند الله تعالى، ثم قال:

كيف بها تعيين حال يطلب أين لتعيين المكان تجلب

يعني أن من أدوات الاستفهام كيف ويطلب بها تعيين حال المسئول عنه نحو {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد} الآية، ومنها قوله:

فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل

ثم قال: (أين لتعيين المكان تجلب) يعني أن من أدوات الاستفهام أين وهي لطلب تعيين المكان نحو {أين شركاؤكم} الآية، ثم قال:

أنى ككيف وكمن أين ترى وكمتى كل عليها قد جرى

يعني أن من هذه الأدوات كلمة أنى بفتح الهمزة والتشديد والياء ولها معان منها السؤال عن الحال ككيف، ولا يليها في هذه الحالة إلا الأفعال نحو: {أنى يحيي هذه الله بعد موتها} الآية، ومنها السؤال عن الجهة التي يبرز منها الشيء كمن أين لك هذا كما في قوله تعالى: {يا مريم أنى لك هذا} ومنها التعميم فتكون بمعنى متى

شئت نحو قوله تعالى: {فاتوا حرثكم أنى شئتم} وقوله (كل عليها قد جرى) يعني به أن كل هذه المعاني قد وصفت بها أنى مع أنه تتميم للبيت ثم قال:

وكم بها يطلب تعيين العدد أي لتعيين المشارك تعد

يعني أن من هذه الأدوات كم ويطلب بها تعيين العدد المبهم نحو {قال كم لبثتم في الأرض} الآية، ثم قال (أي لتعيين المشارك تعد) يعني أن أيا من أدوات الاستفهام ويطلب بها تعيين وتمييز أحد المشتركين في أمر يعمهام كقوله تعالى: {أي الفريقين خير مقاما} الآية، ثم قال:

وهي عن الزمان والحال العدد وعاقل وغير عاقل ترد

يعني أن أيا يمكن استعمالها في جميع معاني الفاظ التصور بحسب ما تضاف إليه فيسأل بها عن الزمان والمكان والحال والعدد والعاقل وغيره فإن أضيفت إلى ما تفيده ما أخذت معناها، وهكذا في بقية الأدوات التي أخذت معانيها ثم قال:

والأدوات بعد هل لا تذكر إلا إذا ما بطلب التصور

يعني أن جميع أدوات الاستفهام التي ذكرت بعد هل موضوعة كلها للتصور فقط فيسأل بها عن معانيها وهي من وما ومتى وكيف وأين وأنى وكم وأي في النظم وأيان كما تقدم بخلاف الهمزة وهل فيسأل بهما عما بعدهما لكونهما حرفان. ولما كانت الأسماء للتصور كان الجواب معها بتعيين المسئول عنه فقط كما أشار له الشيخ بقوله:

لذا جوابها بتعيين الذي يسأل عنه لا سواه فاحتذي

أي اتبع تصور معنى البيت واضح مما تقدم ثم استطرد بعض المعاني التي تنقل إليها أدوات الاستفهام فقال:

ولمعاني غير الاستفهام تعلم من سياق ذا الكلام

يعني أن هذه الألفاظ قد يخرج بها عن معناها الأصلي وهو طلب العلم بمجهول فيستفهم بها عن الشيء مع العلم به لأغراض تفهم من سياق الكلام ودلالته ومن أهمها ما أشار له بقوله:

كـــالنفي والإنكـــار والتقريـــر تـــوبيخ التعظـــيم والتحقيـــر
تعجـــب تســـوية تشـــويق تمـــن اســـتبطا فخـــذ تحقيقـــي

يعني أن من المعاني التي قد تنقل إليها صيغة الاستفهام النفي كقوله تعالى: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} ومنها الإنكار بشرط أن تسبق الهمزة المنكر كقوله: {أغير الله تدعون}الآية ،ومنه قوله:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

تنبيه: اعلم أن الإنكار إذا وقع في الإثبات يجعله نفيا كقوله تعالى {أفي الله شك} وإذا وقع في النفي يجعله إثباتا كقوله تعالى {ألم يجدك يتيما فآوى} وبيان ذلك أن إنكار الإثبات والنفي نفي لهما ونفي الإثبات نفي ونفي النفي إثبات، والإنكار قد يكون للتوبيخ على ما وقع نحو {أتعبدون ما تنحتون} ومن المعاني التي تخرج إليها أدوات الاستفهام التقرير ويكون بالهز غالبا بشرط أن تسبق الهمزة المفرد ويذكر بعدها نحو أزيدا ضربت، وكقوله تعالى {ألم نشرح لك صدرك} ويكون بغير الهمزة نادرا كقولك كم لي عندك ولمن هذا الكتاب، ومنها التوبيخ والتقريع كقوله:

إلى م الخلف بينكما إلى ما وهذه الضجة الكبرى على ما

ومنها التعظيم كقوله تعالى {من ذا الذي يشفع عنده} وكقول أبي الطيب:

من للمحافل والجحافل والسرى فقدت بفقدك نيرا لا يطلع

ومن اتخذت على الضيوف خليفة ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

ومنها التحقير نحو أهذا الذي مدحت كثيرا وكقوله:

من أنتم إنا نسينا من أنتم وريحكم من أي ريح الأعاصر

ومنها التعجب نحو قوله تعالى {ما لهذا الرسول يأكل الطعام} ومنه قول الشاعر:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبل

ومنها التسوية كقوله تعالى {سواء أأنذرتهم} ومنها التشويق كقوله تعالى {هل أدلكم على تجارة تنجيكم} ومنا التمني كقوله تعالى {فهل لنا من شفعاء} ومنها الاستبطاء نحو قوله تعالى {متى نصر الله} ومنه قوله:

حتى م نسار النجم في الظلم وما يراه على خف ولا قدم

وقوله (فخذ تحقيقي) تتميم للبيت فقط.

تنبيه: اعلم أن كلما وضع من الإخبار في صورة الاستفهام فقد تجددت لهى مزية بلاغية زادت المعنى روعة وجمالا كما في الأمثلة السابقة، ثم أشار إلى تعريف الضرب الرابع من أضرب الإنشاء الطلبي فقال:

وطلب المحبوب ذي الإياس رسم التمني دونما التباس

أي غموض يعني أن من أضرب الإنشاء التمني وهو طلب المحبوب الذي لا يرجى ولا يتوقع حصوله إما لكونه مستحيلا عادة قوله:

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

وإما لكونه ممكنا غير مطموع في نيله كقوله تعالى {يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون}، ثم أشار إلى أدواته الأصلية والعارضة بقوله:

أداته ليت فحسب ولعل يأتي بها لغرض كلو وهل

يعني أن أداة التمني الأصلية هي ليت وله ثلاث أدوات أخرى تنوب عنها عرضا لنكتة بلاغية منها لعل كقوله:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

ومنها لو كقوله تعالى{لو أن لنا كرة} ومنها هل كقوله تعالى {فهل لنا من شفعاء} الآية.

تنبيه: سبب العدول إلى لو الدلالة على عزة متمناها وندرته حيث أبرز في صورة الذي لا يوجد لأن لو تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط، ولأجل استعمال هذه الأدوات في التمني بنصب المضارع الواقع في جوابها كما رأيت قال:

وطلب المحبوب ما إن أيسا هو الترجي بلعل وعسى

يعني أن المحبوب إذا كان مرجو الحصول يسمى ترجيا ويعبر عنه بلعل وعسى واخلولق وحرى نحو عسى الله أن يغفر لنا ما بيننا وبينه وأن يتحمل عنا ما بيننا وبين خلقه إنه غفور رحيم جواد كريم ثم قال:

وليت فيه قد تجيء لغرض للمتكلم البليغ قد عرض

يعني أن ليت قد تستعمل في الرجاء لنكتة بلاغية تعرض للمتكلم كإبراز المستحيل مبالغة في بعد نيله كقوله:

فيا ليت ما بيني وبين أحبتي من البعد ما بيني وبين المصائب

تنبيه: قد تستعمل ليت للتندم كقوله تعالى حكاية عن الكافرين {يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا} الآية، ثم أشار إلى الضرب الخامس من أضرب الإنشاء الطلبي فقال:

طلب الإقبال بحرف ناب عن مضارع الدعا النداء حيث عن

أي عرض، يعني أن من أضرب الإنشاء الطلبي النداء وهو طلب المتكلم إقبال المخاطب بحرف نائب مناب ادعو المنقول من الخبر إلى الإنشاء بإحدى أدواته الثمانية الآتي ذكرها في قوله:

أداتـــه الهمـــزة وا أي ويـــا وأيهـــا كـــذاك أي وهيـــا
أي وهمـــزة نـــدا القريـــب والغيـــر للبعيـــد يـــا قريبـــي

يعني أن أصل هذه الأدوات أن تستعمل الهمزة وأي لطلب إقبال القريب، وأن يستعمل الباقي لطلب إقبال البعيد، وقد يخرج عن ذلك لنكتة بلاغية كما قال:

ويجعل البعيد كالقريب لنكتة تظهر للأريب

يعني أن المنادى البعيد قد ينزل منزلة المنادى القريب فينادى بالهمزة وأي لنكتة تظهر للأريب العاقل من نكت أشار إلى بعضها بقوله:

إشارة لقربه في القلب أو حضوره في الذهن فارع ما رعوا

يعني أن من النكت التي يجعل بها البعيد بمنزلة القريب الإشارة إلى أنه قريب في القلب لا يغيب عنه حتى كأنه لشدة استحضاره في ذهن المتكلم ماثل أمام العين كقول الشاعر:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربع قلبي سكان

وعليه فأو في البيت بمعنى الواو على حد قوله:

جاء الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

(وارع ما رعوا) تتميم للبيت كما أنه قد ينزل القريب منزلة البعيد فينادى بغير الهمزة وأي لنكتة بلاغية كما قال:

ويجعل القريب كالبعيد أيضا لأجل غرض سديد

يعني أن المنادى القريب قد ينزل منزلة المنادى البعيد لنكتة بلاغية يراها المتكلم من نكت سيذكرها الشيخ.

لطيفة: لقد ذكر أهل هذا الفن أن الأدباء كرهوا قديما كلمة أيضا وعدوها من ألفاظ العلماء فلم تجر بها أقلامهم في شعر ولا نثر حتى ظهر بينهم من قال:

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صرحت في فنن
ذكرت ألفا ودهرا سالفا فبكت حزنا فهاجت حزن

فبكـــــائي ربمـــــا أرقـــــها وبكاهـــــا ربمـــــا أرقنـــــي
ولقـــد تشـــكو فمـــا أفهمهـــا ولقـــد أشـــكو فمـــا تفهمنـــي
غيـــر أنـــي بـــالجوى أعرفهـــا وهـــي أيضـــا بـــالجوى تعرفنـــي

فوضه هذا الأديب كلمة أيضا في مكان لا يتطلب سواها ولا يتقبل غيرها، وكان لها من الروعة والحسن في نفس الأديب ما يعجز عنه البيان، ثم أشار إلى بعض النكت التي يجعل بها القريب مثل البعيد فقال:

إشارة إلى علو رتبته أو انحطاط حالة أو غفلته

يعني أن من الأغراض التي ينزل بها القريب منزلة البعيد الإشارة إلى علو مرتبة كقول العبد لسيدة أيا مولاي وهو معه للدلالة على أن المنادى عظيم الشأن رفيع القدر عند المتكلم تنزيلا لبعد المنزلة في المعاني الرفيعة منزلة بعدها في المكان، ومنها كذلك العكس وهو الإشارة إلى انحطاط حال المخاطب ودرجته عند المتكلم أيضا كقولك لمن هو معك أيا هذا، ومنها غفلة المخاطب وشرود ذهنه حتى كأنه غير حاضر فينادى بأداة نداء البعيد كقولك للساهي والمشتغل أيا فلان ومنه قول الشاعر:

أيا أيها السادر المزورّ عن صدف مهلا فإنك بالأيام منخدع

ثم إن صيغ النداء قد يخرج بها عن معناها الأصلي إلى معاني أخرى وإلى ذلك أشار الشيخ بقوله:

وقد تجيء صيغ النداء للزجر والتحسر الإغراء

يعني أن من النكت التي تخرج بها صيغة النداء عن معناها الأصلي الزجر كقوله:

أفؤادي متى المتاب ألما تصح والشيب فوق رأسي ألما

ومنها التحسر والتوجع كقول الكافر يوم القيامة {يا ليتني كنت ترابا} ومنه قول الشاعر:

أيا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا

زمنها الإعزاء كقولك لمن قدم يتظلم يا مظلوم إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة التي خرجت إليها صيغ النداء.

باب القصر:

وهو لغة الحبس قال تعالى {حور مقصورات في الخيام} الآية، وفي الاصطلاح الصرفي حبس الكلمة على الألف بحيث لا تتعداه إلى الهمز، وفي اصطلاح أهل المعاني ما أشار له الشيخ بقوله:

تخصيصك الأمر بأمر بطريق مقصورة ذا الرسم للقصر حقيق

يعني أن القصر عند أهل الفن هو تخصيص أمر شيء وهو المقصور بأمر أي شيء وهو المقصور عليه بطريق مخصوصة من طرق القصر وهي الألفاظ الموضوعة لذلك الغرض وهي كثيرة وأشهرها أربعة أشار إليها بقوله:

صيغه أربعة تشتهر نفي مع استثناء.....

يعني أن من الصيغ المشهورة للقصر النفي والاستثناء نحو {وما محمد إلا رسول} الآية، أي لا باق ردا على من زعم أنه رسول وباق لا يموت، والذي دل على ذلك هو النفي بكلمة ما المتقدم والاستثناء بكلمة إلا التي قبل الخبر فما قبل إلا وهو محمد يسمى مقصورا وما بعدها وهو رسول يسمى مقصورا عليه وما وإلا هما طرفي القصر وأداته.

تنبيه: الأصل في النفي والإثبات أن يجيء لأمر ينكره المخاطب أو يشك فيه أو لما هو منزل هذه المنزلة ومنه قوله تعالى {وما أنت بمسمع من في القبور} الآية، ثم قال:

....وقد يؤخر

ما كان مقصورا عليه ههنا كمثل ما كإنما العلم سنا

يعني الطريقة الثانية من طرق الحصر أن يؤخر المحصور عليه عن جميع الجملة التي هو فيها وجوبا وذلك في القصر بإنما كمثال الناظم (إنما العلم سنا) فإنه قصر للموصوف الذي هو العلم على الصفة التي هي السنا، ومنه قوله تعالى {إنما يخشى الله من عباده العلماء} الآية، ومنه قول الشاعر:

إنما يشتري المحامد حر طاب نفسا لهن بالأثمان

قلت: والفرق بين تأخير المقصور عليه هنا وتأخيره في النفي والاستثناء أن التأخير هنا عن جميع الجملة والتأخير هناك عن أداة الاستثناء مع مقارنتها فتنبه.

تنبيهان الأول الأصل في القصر بإنما أن يجيء الأمر من شأنه أن لا يجهله المخاطب ولا ينكر وإنما يراد تنبيهه عليه فقط أو لما هو منزل هذه المنزلة، فمن الأول قوله تعالى {إنما يستجيب الذين يسمعون} ومن الثاني قوله تعالى حكاية عن المنافقين {إنما نحن مصلحون} فإنهم قد ادعوا أن إصلاحهم أمر جلي لا شك فيه ولا غموض ومنه قول الشاعر:

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

الثاني للقصر بإنما مزية علىٰ القصر بالعطف بأنها تفيد إثبات الشيء المذكور ونفي ما سواه دفعة واحدة بخلاف العطف فإنه يفيد الإثبات أولا ثم النفي ثانيا أو العكس، ثم أشار إلى الطريقة الثالثة من طرق القصر فقال:

عطف بلا وبل ولكن قبل لا يكون للذْ بعدها مقابلا

يعني أن من طرق القصر الشهيرة العطف بلا وببل وبلكن، ويشترط في لا إفراد معطوفها وأن تسبق بإثبات وأن لا يكون ما بعدها داخل في عموم ما قبلها، فلا يصح ما زيد إلا قائم، وأن يكون المقصور عليه معها مذكورا قبلها مقابلا لما بعدها نحو قام زيد لا عمرو ردا على من زعم اشتراكهما فيه، ويسمى قصر إفراد أو تردد فيمن وقع منه القيام منهما، ويسمى قصر تعيين أو اختصاص عمرو به ويسمى قصر قلب ومنه قوله:

عمر الفتى ذكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الداني

ويمكن اجتماعها مع كل من إنما والتقديم، نحو إنما محمد ذكي لا غبي وبالذكاء يفوز الفتى لا بالغباوة، ومن الصيغ أيضا العطف ببل وبلكن كما تقدم ويشترط في كل منهما أن تسبق بنفي أو نهي وأن يكون المعطوف بهما مفردا وأن لا تقترن لكن بالواو وأن يكون المقصور عليه معهما مذكورا بعدهما خلافا للا كما قال:

وإن بلكن وببل قد يحصل فهو بعيد الصيغتين يجعل

نحو ما الفخر بالمال بل بالعلم، ما الفوز بالنسب لكن بالتقوى، ويقال في القصر بهما ما قيل في القصر بلا من إفراد وتعيين وقلب ثم أشار إلى الطريقة الرابعة فقال:

تقديم ما ليس له التقدم .....

يعين أن من طرق القصر تقديم ما حقه التأخير من المعمولات نحو {إياك نعبد وإياك نستعين} الآية، والمقصور عليه في هذه الحالة هو المذكور المتقدم نحو {على الله توكلنا} ومنه قول المتنبي:

من البلية عذل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم

تنبيه: لا تعرف دلالة التقديم على القصر إلا بالذوق السليم والفكر الصائب بخلاف الثلاثة الباقية فإنها تدل عليه بالوضع اللغوي، فتأمل. ثم أشار إلى تقسيم القصر باعتبار الحقيقة والواقع فقال:

..... وهو حقيقي أو أضاف يعلم

يعني أن القصر باعتبار الحقيقة والواقع ينقسم على قسمين حقيقي وهو أن يختص المقصور عليه بالمقصور بحسب الحقيقة والواقع فلا يتعداه إلى غيره أصلا، نحو لا إله إلا الله، ولا يكاد هذا النوع يوجد لتعذر الإحاطة بصفات الشيء حتى يمكن إثبات شيء منها ونفي ما عداه، ومنه نوع يسمى الحقيقي الادعائي ويكون على سبيل المبالغة بفرض أنما عدا المقصور عليه لا يعتد به، نحو لا شجاع إلا علي، والقسم

الثاني قصر إضافي وهو أن يختص المقصور عليه بالمقصور حسب الإضافة والنسبية إلى شيء آخر معين لا لجميع ما عداه نحو ما مسافر إلا زيد فإنك تريد قصر السفر عليه دون بكر مثلا، وليس القصد أنه لا يوجد مسافر سواه إذ الواقع يشهد ببطلان ذلك، ثم قال:

كل لموصوف على ما قد وصف به أو الوصف على ذا المتصف

يعني أن القصر ينقسم باعتبار طرفيه المقصور والمقصور عليه سواء كان قصرا حقيقيا أم قصرا إضافيا إلى نوعين: قصر لموصوف على صفة وهو أن يحبس الموصوف على الصفة أي يختص بها دون غيرها وقد يشاركه فيها غيره، مثاله من الحقيقي مع عدم المشاركة {وما محمد إلا رسول} الآية، الثاني قصر الصفة على موصوفها وهو أن تحبس الصفة على موصوفها وتختص به فلا يتصف بها غيره وقد يتصف الموصوف بغيرها من الصفات، مثاله من الحقيقي لا رازق إلا الله تعالى، ومن الإضافي لا شجاع إلا علي.

تنبيه: اعلم أن القصر من ضروب الإيجاز الذي هو أعظم ركن من أركان البلاغة إذ أن جملة القصر في مقام جملتين فقولنا ما كامل إلا الله تعالى تعادل قولنا الكمال لله وليس كاملا غيره، وهو من محددات المعاني تحديدا كاملا، ويكثر ذلك في المسائل العلمية وما يماثلها، والغرض منه تمكين الكلام وتقريره في الذهن كقوله:

وما المرء إلا كالهلال وضوئه يوافي تمام الشهر ثم يغيب

وقد تراد به المبالغة في المعنى كقوله:

وما المرء إلا الأصغران لسانه ومعقوله والجسم خلق مصور

وقد يراد به التعريض كقوله تعالى {وما يذكر إلا أولوا الألباب} فإنه تعريض بالمشركين الذين هم في حكم من لا عقل له.

باب الفصل والوصل:

والفصل لغة القطع والوصل ضده واصطلاحا ما أشار له الشيخ رضي الله تعالى عنه بقوله:

الوصل عطف بين جملتين والفصل تركه بدون مين

يعني أن الوصل في اصطلاح البيانيين هو جمع وربط بين جملتين لصلة بينهما في الصورة والمعنى، أو لدفع اللبس، ولا تتحقق بلاغته إلا إذا كان العطف بالواو دون بقية حروف العطف لأن الواو هي الأداة التي تخفي الحاجة إليها، ويحتاج العطف معها إلى لطف في الفهم ودقة في الإدراك إذ لا تفيد إلا مجرد الربط وتشريك ما بعدها لما قبلها في الحكم نحو مضى زمن من الغفلة وجاء وقت الجد والتوبة فقم واسع في الخير، ولا بد للعطف بها أن يكون بين الجملتين جامع حسي أو عقلي أو عادي ولو خيالا، بخلاف العطف بغيرها من الحروف فإنه يفيد مع التشريك معاني أخرى كالترتيب مع التعقيب في الفاء وكالترتيب مع التراخي في ثم، وهكذا باقي حروف العطف التي إذا عطفت بواحد منها ظهرت الفائدة ولا يقع اشتباه في استعماله، والفصل ترك الربط بين الجملتين إما لاتحادهما معنى وصورة، وإما لتنزيلهما منزلة المتحدتين، وإما لعدم الصلة بينهما في شيء من ذلك كما أشار له بقوله:

فإن يكن كمال الاتصال بينهما فاحكم بالانفصال
وذاك أن تكون منها كالبدل أو كالبيان أو كتوكيد حصل
أو اقتضت الاولى سؤالا وظهر من ذي جوابها فبالفصل تقر
لآن ذا شبه كمال الاتصال .....

يعني أن الجمل قد يعرض لها ما يوجب ترك الوصل بينها، ويقع ذلك في خمسة مواضع: الأول أن يكون بينهما اتحاد تام وامتزاج معنوي حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد ويسمى كمال الاتصال بحيث تنزل الثانية من الأولى منزلة نفسها لكونها بمنزلة البدل منها نحو قوله تعالى {واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين} الآية،

أو كونها بيانا لإبهام فيها نحو {فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد} أو كونها تأكيدا لها نحو {فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} فالمانع من العطف في هذه المواضع هو اتحاد الجملتين اتحادا تاما والشيء لا يعطف على نفسه، أو كون الأولى اقتضت سؤالا والأخرى جواب ذلك السؤال نحو {يسبح له فيها بالغدو والآصال} في قراءة التركيب للمجهول، ومنه قول الشاعر:

لبيك يا زيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

ومنه قوله:

زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا لكن غمرتي لا تنقضي

فكأنه سئل أصدقوا في زعمهم أم كذبوا فأجاب صدقوا، والمانع من الوصل في هذه المواضع شدة ارتباط الجواب بالسؤال، ثم قال:

..... والفصل أيضا في كمال الانفصال

وذاك أن تكون إحدى الجملتين إنشا والاخرى خبر بدون ميــن

يعني أن من مواضع الفصل كون الجملتين بينهما كمال الانقطاع وهو اختلاف الجملتين اختلافا تاما وذلك بأن يختلفا خبرا وإنشاء لفظا ومعنى أو معنى فقط كقوله:

وقال رائدهم أرسو نزاولهم فحتف كل امرئ يجري بمقداره

ثم قال:

ولا يكون جامع بينهما أو عطفها غير المراد أو هما

يعني من المواضع التي توجب الفصل كون الجملة الخبرية لا رابطة بينها مع الأولى، وذلك بأن لا تكون بينهما مناسبة ولا ارتباط لاستقلال كل منهما بنفسها كقولك زيد كاتب الحمام طائر ،ومنه قوله:

إنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه

وكون عطفها عليها يوهم غير المراد كقوله:

وتظن سلى أنني أبغي بها بدلا أراها في الضلال تهيم

فقد فصل جملة أراها لأنه لو عطفها لظن أنه معطوف على أبغي فيكون من مدخول الظن وليس ذلك مرادا لأنه يفسد المعنى، ثم أشار إلى مواضع الفصل الثلاثة فقال:

والوصل إن يتفقا وقد جرى تناسب بينهما تقـــــررا

أو قصد التشريك في الإعراب أو أوهم الفصل سوى الصواب

يعني أن الوصل وهو عطف الجملة على الأخرى بالواو يقع في ثلاثة مواضع: الأول إذا اتحدت الجملتان في الخبرية والإنشائية لفظا ومعنى أو معنى فقط لأنه المعول عليه في الاتحاد ولا قيمة لاختلاف الصورة اللفظية، ولم يكن هناك ما يقتضي الفصل بينهما مما تقدم تفصيله وكانت بينهما مناسبة تامة، مثال الخبريتين قوله تعالى {إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم} فقد وصلت الجملة الثانية بالأولى لما بينهما من تناسب في الفكر لأن السامع إذا حصل في ذهنه حال أحد الفريقين تصور حال الفريق الآخر، ومثال الإنشائيتين {اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا} فقد وصل جملة ولا تشركوا بجملة واعبدوا لاتحادهما في الإنشاء ولأن المطلوب بهما ما يجب على الإنسان أن يؤديه لخالقه ويختصه به، ومثال المختلفين قوله تعالى: {إني أشهد الله واشهدوا إني بريء مما تشركون من دونه}، وكل من هذه الجمل لا محل له من الإعراب. الموضع الثاني أن يكون للجملة الأولى محل من الإعراب فيقصد تشريك الجملة الثانية لها في الإعراب حيث لا مانع، نحو زيد يؤمن ويشكر، فجملة يؤمن في محل رفع على الخبرية للمبتدأ وعطف يشكر عليها يعطيها نفس الحكم وذلك يوجب الوصل. الموضع الثالث أن يكون فصل الثانية عن الأولى يوهم خلاف المقصور فيقع الوصل لرفع توهم غير المراد، وذلك غالبا في اختلافهم في الخبرية والإنشائية كقولك لسائل هل برئ زيد لا وشفاه الله فترك الواو يوهم السامع الدعاء عليه وهو خلاف المقصود لأن الغرض الدعاء له ولهذا وجب الوصل، ومن هذا الباب ما يحكى أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وعنا به مر برجل في

يده ثوب فقال أتبيع هذا فقال لا يرحمك الله تعالى، فقال له أبو بكر لا تقل هذا ولكن قل لا ويرحمك الله، فالجملة الأولى المدلول عليها بكلمة لا خبرية، والثانية إنشائية في المعنى لأنها لطلب الرحمة والشفاء وكان الواجب الفصل لولا ما يسببه من الإبهام.

تنبيه: علم مما تقدم أن مواضع الوصل لا بد فيها بعد اتفاق الجملتين في الخبرية والإنشائية، من الاتفاق في جهة بها يتجاذبان وجامع به يتئاخذان كما تقدم.

باب المساواة والإيجاز والإطناب:

اعلم أن كل ما يجول في الصدر من المعاني ويخطر بالبال إذا أردت أن تتحدث عنه إلى الناس لا يمكنك أن تعبر عنه تعبيرا صحيحا مقبولا إلا في إحدى صورة من صور ثلاث وهي: المساواة والإيجاز والإطناب، ولا يعد الكلام في صورة من هذه الصور بليغا إلا إذا كان مطابقا لمقتضى حال المخاطب وتدعو إليه مواطن الخطاب، فإن عدلت عن حالة إلى أخرى لم يكن كلامك بليغا، ولذا قال الشيخ طيب الله ثراه:

إن تستوي الألفاظ والمعاني تلك المساواة بلا زيدان

الزيدان مصدر شاذ كالشنئان وهو بمعنى الزيد والمزيد والزيادة، يعني أن التعبير إذا جاء على قدر المعنى بحيث يكون اللفظ مساويا لأصل ذلك المعنى لا أقل ولا أكثر فهذه هي المساواة عند أهل الفن وهي الأصل الذي يكون أكثر الكلام على صورته وهي الدستور الذي يقاس كقوله تعالى {وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله} الآية، ثم قال:

جمع المعاني المتكاثرة في لفظ قليل بالإبانة يفي

الإيجاز..... .....

يعني أن وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها وافية بالغرض المقصود من إبانة المعنى والإفصاح عنه هو المسمى عندهم بالإيجاز نحو قوله تعالى {خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين} فهذه الآية جمعت مكارم الأخلاق بأسرها، فإذا لم تف العبارة بالغرض المقصود سمي ذلك إخلالا وحذفا رديئا كقوله:

والعيش خير في ظلال النـــــــــــوك ممن عاش كدا

يريد الشاعر أن العيش الناعم الرغد في حال الحمق والجهل خير من العيش الشاق في حال العقل، فجاء كلامه غير صحيح ولا مقبول، وقد قال الإمام علي ما رأيت بليغا إلا وله في القول إيجاز وفي المعاني إطالة، وقالت بنت الحطيئة لأبيها ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ فقال لأنها بالآذان أولج، وبالأفواه أعلق، وقيل لشاعر لم لا تطيل شعرك؟ فقال لسائله حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق، ثم ذكر ما يكون به الإيجاز فقال:

..... وهو تارة بالقصر وتارة بالحذف دون نكر

يعني أن الإيجاز ينقسم إلى قسمين: إيجاز قصر أي بالقصر، وإيجاز حذف أي بالحذف أشار إليهما بقوله:

فأول تضمينك المعنى الكثير من غير حذف في كلامك اليسير

يعني أن إيجاز القصر ويسمى إيجاز البلاغة يكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف كقوله تعالى {ولكم في القصاص حياة} فإن معناه كثير ولفظه يسير إذ المراد أن الإنسان متى علم أنه إذا قَتَل قُتِل امتنع عن القتل وفي ذلك حياته وحياة غيره لأن القتل أنفى للقتل وبذلك تطول الأعمار وتكثر الذرية ويقبل كل واحد على ما يعود عليه بالنفع فيتم النظام ويكثر العمران، وهذا القسم هو مطمح نظر البلغاء وبه تتفاوت أقدارهم حتى أن بعضهم سئل عن البلاغة فقال هي إيجاز القصر، وقال أكثم بن صفي خطيب العرب البلاغة الإيجاز، ثم قال:

والثاني حذف كلمة فأكثرا مع قرينة على الحذف ترى

يعني أن إيجاز الحذف يكون بحذف كلمة فأكثر من العبارة بحيث لا يخل بالفهم عند وجود ما يدل على المحذوف، قرينة لفظية أو معنوية، سواء كان المحذوف حرفا نحو {ولم أك بغيا} أو اسما نحو {وجاهدوا في الله} أي في سبيل الله أو شرطا نحو {اتبعوني يحببكم الله} أو جوابية نحو {ولو ترى إذ وقفوا على النار} أو جملا متعددة نحو {فأرسلون يوسف أيها الصديق}.

تنبيه: اعلم أن دواعي القصر كثيرة منها الاختصار وتسهيل الحفظ وتقريب الفهم وضيق المقام وإخفاء الأمر على غير السامع والضجر والسآمة وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير، ويستحسن الإيجاز في الاستعطاف وشكوى الحال والاعتذار والتعزية والعتاب والوعد والوعيد والتوبيخ ورسائل الملوك إلى الولاة في أوقات الحرب والأوامر والنواهي والشكر على النعم، ثم قال:

زيادة اللفظ على المعنى لفا ئدة الإطناب حيث عرفا

يعني أنك إذا أردت تعريف الإطناب في مصطلح أهل الفن فهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة تقويته وتوكيده، كقوله تعالى حاكيا عن زكرياء {رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} فإن لم تكن في الزيادة فائدة وكانت غير معينة سمي تطويلا كقوله:

وقددت الأديم لراهشيه وألفي قولها كذبا ومينا

فالمين والكذب شيء واحد ولم يتعين الزائد منهما لأن العطف بالواو لا يفيد ترتيبا ولا تعقيبا ولا معية فلا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت، فإن كانت الزيادة لغير معنى متعينة سمي حشوا كقوله:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولا كنني عن علم ما في غد عم

فقبله حشو لأنه معلوم من قوله بالأمس، وكل من الحشو والتطويل معيب في البيان بمعزل عن مراتب البلاغة، والإطناب يكون بأمور متعددة أشار إلى بعضها بقوله:

ذكر الذي يخص بعد ما يعم وعكسه منه لنكتة تؤم

أي تقصد، يعني أن الإطناب يكون بأشياء: منها ذكر الخاص بعد ذكر العام كقوله تعالى {حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى} الآية {ومن كان عدوا لله وملئكته ورسله وجبريل وميكائيل}، وعكسه وهو ذكر العام بعد ذكر الخاص كقوله تعالى {رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا} الآية، وذلك يكون لنكتة الاعتناء بالشيء الخاص وفائدته، التنبيه على مزية وفضل في الخاص حتى كأنه جنس آخر مغاير لما قبله لفضله ورفعته، وفائدة ذكر العام بعد ذكر الخاص شمول بقية الأفراد والاهتمام بالخاص لذكره ثانيا في عنوان عام بعد ذكره أولا في عنوان خاص، ثم قال:

من ذلك الإبهام والتوضيح من بعده لنكتة تلوح

يعني أن من أنواع الإطناب الإيضاح بعد الإبهام لنكتة تلوح وتظهر كتقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين مرة على سبيل الإجمال والإبهام ومرة على سبيل التفصيل والإيضاح فيزيده ذلك نبلا وشرفا كقوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله} الآية، وقوله تعالى {وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين} الآية، وفائدته توجيه الذهن إلى معرفته وتفخيم شأن المبين وتمكينه في ذهن السامع، ثم قال:

كذاك تكرار لتمكين الذي عنيت منة نفس المخاطب خذي

يعني أن من أنواع الإطناب تكرار الشيء بذكره مرتين لأغراض: منها التوكيد وتقرير المعنى في نفس المخاطب كقوله تعالى {كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون} الآية، ثم قال:

وكالتحسر وطول الفصل .....

يعني أن من النكت الداعية إلى الإطناب بالتكرار إظهار التحسر والأسى كقوله:

فيا قبر معن أنت أول حفـــرة من الأرض حطت للسماحة مضجعا

فيا قبر معن كيف واريت جوده وقـــد كان منه البـــر والبحر مترعا

ومنها كذلك طول الفصل ليلا يجيء الكلام مبتورا ليست له طلاوة كتكرير كلمة رأيت في قوله تعالى حكاية عن يوسف: {يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين}.

قلت: ومنها زيادة الترغيب في العفو كقوله تعالى {وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم} والتغيب في قبول النصح باستمالة المخاطب لقبول الخطاب كقوله تعالى حاكيا عن مؤمن آل فرعون {وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهديكم سبيل الرشاد، يا قوم إن هذه الحياة الدنيا متاع} الآية إلى غير ذلك، ثم قال:

..... والاعتراض منه دون حظل

وهو أن يجيء أثناء الكلام أو في كلامين حواهما انتظام

بجملة ففوقها ليس لها محل .....

يعني أن من أنواع الإطناب الاعتراض، وهو إتيان المتكلم بجملة أو أكثر أثناء كلام واحد أو كلامين مرتبطين ليس لتلك الجملة أو الجمل محل من الإعراب كقوله:

إن الثمانين وبلغتها أحوجت سمعي إلى ترجمان

ومنه قوله تعالى: {ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي} الآية، ولم يشترط أحدهم وقوعه بين جزأي جملة ولا وقوعه بين كلامين، بل جوز وقوعه آخر الكلام مطلقا، وله ارتباط بما قبله أم لا، ومثلوا له بقوله تعالى { وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} فجملة ونعم الوكيل اعتراضية وليست معطوفة على ما قبلها ليلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر، ثم قال:

..... وتذليل بذا الباب يحل

تعقيب جملة بأخرى اشتملت على الذي تحويه ذي فأكدت

يعني أن من أنواع الإطناب التذييل، وهو تعقيب جملة بجملة أخرى مستقلة تشتمل على معناها تأكيدا لمنطوقها أو مفهومها نحو {قل جاء الحق وزهق الباطل إن

الباطل كان زهوقا} وقواه تعالى { ذلك جزيناهم بما كفرو وهل يجازى إلا الكفور} الآية، وهو قسمان أشار إليهما بقوله:

فمنه قسم قد جرى مجرى المثل وهو الذي كان بمعناه استقل

يعني أن التذييل هذا قسمان: قسم يستقل بمعناه لكونه جاريا مجرى المثل لاستقلال معناه واستغنائه عما قبله كقول طرفة:

كل خليل قد خاللته لا ترك الله له واضحه

كلكم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحه

القسم الثاني هو قوله:

والقسم الآخر الذي يفتقر إلى الذي من قبله يقرر

يعني أن القسم الثاني من قسمي التذييل هو الذي لا يستقل بمعناه لعدم جريانه مجرى المثل ولافتقاره إلى ما قبله كقول النابغة:

لم يبق لي جودك شيء أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

فالشطر الثاني مؤكد للأول وليس مستغنيا عنه ثم قال:

ومنه الاحتراس أن يأتي بما يدفع عنه اللوم من تكلما

قوله أن يأتي بإثبات الياء فأن غير عاملة على حد قوله:

أن تقرآني على أسماء ويحكما مني السلام وأن لا تشعر أحدا

أو بإسقاط الياء فأن جازمة على حد قوله:

إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى آبائنا الصيد نحطب

يعني أن من أنواع الإطناب الاحتراس ويقال له التكميل، وهو أن يأتي المتكلم في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع عنه ذلك الوهم، والاحتراس يوجد حيثما يأتي

المتكلم بمعنى يمكن أن يدخل عليه فيه لوم فيفطن لذلك فيأتي بما يخلصه من ذلك سواء وقع الاحتراس في وسط الكلام كقول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

فإنه لما كان المطر مما يسبب الخراب دفع ذلك الوهم بقوله غير مفسدها، ومنه قوله تعالى {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين} وقوله تعالى {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم} ففي الآية الأولى لما ذكر تعالى أن الصحابة أذلة على المؤمنين دفع أن توهم المذلة لازمة لهم بقوله {أعزة على الكافرين} وفي الآية الثانية لما ذكر أنهم أشداء على الكفار دفع توهم أن الشدة من طبعهم ولو مع غير الكفار بقوله {رحماء بينهم} أو وقع في آخره كقوله تعالى {ويطعمون الطعام على حبه} أي مع حب الطعام واشتهائهم له، وذلك أبلغ في الكرم، فلفظ على حبه فضلة للاحتراس ولزيادة التحسين في المعنى، ومنه قول أعرابية لرجل أذل الله كل عدو لك غير نفسك، ثم قال:

قلت ومعناه الشهير يعهد بدافع إيهام ما لا يقصد

يعني به طيب الله تعالى ثراه أن معنى الاحتراس الشهير يعرف ويسمى بأنه دافع إيهام ما لا يقصده ولا يريده المتكلم كما تقدم.

قلت: وبقي من أنواع الإطناب التوشيع وهو أن يأتي المتكلم في آخر الكلام بمثنى مفسر بمفردين ليرى المعنى في صورتين يخرج فيهما من الخفاء المستوحش إلى الظهور المستأنس نحو العلم علمان علم أبدان وعلم أديان، ومنها الإيغال وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم الكلام بدونها كالمبالغة في قول الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقولها كأنه علم واف بالمقصود، لكنها عقبته بقولها في رأسه نار لزيادة المبالغة، ومنها التتميم وهو قريب من الاحتراس، وهو زيادة فضلة في الكلام تزيد معناه حسنا بحيث لو حذفت صار الكلام مبتذلا لا طلاوة فيه كقوله:

صببنا عليها ظلمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

إذ لو حذف الشاعر قوله ظلمين لكان الكلام لا رقة فيه ولا طلاوة ولتوهم أنها بليدة تستحق الضرب.

قلت: وعندي أن الإيغال هذا أعم من الاحتراس فتأمل.

تنبيه: يستحسن الإطناب في الصلح بين العشائر والمدح والذم والثناء والهجاء والوعظ والإرشاد والخطابة في أمر من الأمور العامة والتهنئة وكتب الولاة إلى الملوك بما يحدث لديهم من الأمور المهمة وهو أرجح عند بعضهم من الإيجاز، وحجته في ذلك أن النطق إنما هو البيان والبيان لا يكون إلا بالإشباع والإشباع لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه وأبينه أشده إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء، والاستقصاء لا يكون إلا بالإطناب، والمختار أن الحاجة إلى كل من الإيجاز والإطناب ماسة، ولكل منهما موضع لا يسد فيه أحدهما مكان الآخر، وللذوق السليم الفصل في موطن كل منهما، وقد تقدمت لك نماذج مما يختار فيه كل منهما.

علم البديع: والبديع لغة:المخترع الموجد على غير مثال سابق واصطلاحا ما أشار له بقوله رحمه الله:

علم البديع ما به يرام أن يكتس الرونق ذا الكلام

يكتس بالكسر والقصر مجزوما بأن على حد قوله:

إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى آبائنا الصيد نحطب

قال ابن بونه:

وجزموا بأن ولن وقالوا .....إلخ.

ويصح أن تكون بالتركيب للمجهول يعني أن علم البديع في الاصطلاح هو علم تعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة وتكسوه بهاء ورونقا بعد مطابقته لمقتضى الحال مع وضوح دلالته على المراد لفظا ومعنى، وإلا كان كتعليق الدر على الخنازير، وواضعه عبد الله بن المعتز العباسي المتوفى سنة أربع وسبعين ومائتين للهجرة، ثم اقتفى أثره عصريُه قدامة بن جعفر فزاد عليه، ثم ألف فيه كثيرون بعد ذلك فزادوا في أنواعه ونظموا فيها قصائد عرفت بالبديعيات، وهو نوعان كما قال الشيخ طيب الله تعالى ثراه:

فمنه لفظي ومعنوي ثم الجناس قد حوى اللفظي

يعني أن البديع نوعان لفظي ومعنوي، وقد قدم الشيخ رحمه الله الكلام على البديع اللفظي بقوله: (ثم الجناس قد حوى اللفظي) يعني أن الجناس ويقال له التجنيس والتجانس والمجانسة قد حواه البديع اللفظي لا أن الجناس قد حوى البديع اللفظي لكونه أعم منه، فتأمل، ولا يستحسن الجناس إلا إذا ساعد اللفظ المعنى ووازن مصنوعه مطبوعه مع مراعاة النظير وتمكن القرائن، فينبغي أن ترسل المعاني على سجيتها لتكتسي من الألفاظ ما يزينها حتى لا يقع التكلف في الجناس مع مراعاة الالتئام ليكون فيه استدعاء لميل السامع والإصغاء إليه، لأن النفس تستحسن المكرر مع اختلاف معناه فيدخلها نوع من الاستغراب وإلى حده أشار الشيخ رحمه الله بقوله:

وهو أن يشتبه اللفظان في النطق مع تخالف المعاني

يعني أن الجناس هو تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى وهو قسمان تام وناقص وإلى التام أشار رحمه الله بقوله:

فإن يك اللفظ مع اللفظ اتحد حرفا وشكلا ثم ترتيبا عدد

فهو بالتمام يوص ....

يعني أن الجناس اللفظي إذا اتفق فيهما اللفظان المتجانسان في أربعة أشياء نوع الحروف وهيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات وترتيبها وعددها سمي جناسا تاما، والعبرة في المماثلة بالنطق لا بالكتابة نحو قوله:

أعذب خلق الله نطقا وفماً إن لم يكن أحق بالحسن فمن

مثل الغزالة نظرة ولفـــتة من ذا رآه مقـــــبلا ولا افتتن

فإن كان اللفظان المتجانسان من نوع واحد كاسمين أو فعلين أو حرفين سمي متماثلا ومستوفيا نحو {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة} الآية، ومنه قوله:

إذا جلست إلى قوم لتؤنسهم فما تحدث من ماض ومن آت

فلا تعيدن حديثا إن طبعهم موكـــــل بمعادات المعـادات

قلت: ومنه قول الشيخ رضي الله تعالى عنه في مبحث الكناية:

لفظ به لازم معناه أريد رسم الكناية به أنا أريد

فالأول ماضي أراد مركبا للمجهول والثاني مضارع أردت، وإن كانا في نوعين كاسم وفعل سمي مستوفيا فقط، نحو ارع الجار ولو جار ومنه قوله:

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيى لدى يحيى بن عبد الله

وهذا النوع مما لا يتفق للبليغ إلا على ندور وقلة فهو لا يقع موقعه من الحسن حتى يكون المعنى هو الذي استدعاه وساقه وحتى تكون كلمته مما لا يبتغي السامع عنها بدلا ولا يجد عنها حولا، ثم أشار إلى القسم الثاني فقال:

..... وما يختل فيه البعض للنقص انتمى

يعني أن الجناس إذا اختل فيه بعض ما ذكر في التام بأن اختلف اللفظان في واحد أو أكثر من الأربعة السابقة سمي جناسا ناقصا، وذلك الاختلاف إما أن يكون

بزيادة حرف في الأول ويسمى مردوفا نحو قولهم دوام الحال محال، أو في الوسط ويسمى مكتفيا نحو جد جهدي، أو في الأخير ويسمى مطرفا ومنه قوله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» إلى غير ذلك من اختلاف في العدد أو الهيئة أو الترتيب، وتختلف تسمياته بتلك الاختلافات إلى أنواع كثيرة.

تنبيه: اعلم أنه لا يستحسن الجناس ولا يعد من أسباب الحسن إلا إذا جاء عفوا وسمح به الطبع من غير تكلف حتى لا يكون من أسباب ضعف القول وانحطاطه ويعرض قائله إلى السخرية والاستهزاء، ثم قال:

ومنه الاقتباس بالشرح يرام إدخال ذكر أو حديث في كلام

وأنت لا لأنـــه منه تشـير وقـــد أجيز فيه تغيير يسـير

يعني أن من البديع اللفظي الاقتباس وهو تضمين كلام الشخص نثرا كان أو نظما شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف، ومن غير دلالة على أنهما منه، مع جواز التغيير اليسير في المقتبس، كقول عبد المؤمن الأصفهاني: لا تغرنك كثرة الجيوش والأنصار، {إنما نؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار} الآية، وقول سناء الملك:

رحلوا فلست مسائلا عن دارهم أنا باخع نفسي على آثارهم

ومنه قول أبي جعفر الأندلسي:

لا تعادي الناس في أوطانهم فلما يرعى غريب الوطن

وإذا ما شئت عيشا بينـهم خالق الناس بخلق حسن

قلت ومنه قول الشيخ في الترجمة:

فقلت والله هو المعين إياه نعبد ونستعين

والغرض من التضمين أن يستعير المتكلم من قول المستعار منه قوة لكلامه، وأن يكشف عن مهارته في إحكام الصلة بين كلامه والكلام الذي أخذه، ثم قال طيب الله ثراه:

توافق الفاصلتين في الأخير من الحروف السجع ذو الفصل الشهير

أفضله ما تستوي فيه الفقر .....

يعني أن من المحسنات اللفظية السجع وهو توافق الفاصلتين في الحروف الأخيرة خاصة، وأفضله ما تساوت فيه، كقوله صلى اله عليه وسلم: «اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسك تلفا» وكقول أعرابي وقد هب السيل بابنه: اللهم إن كنت قد أبليت فإنك طالما قد عافيت، ولا يحسن السجع إلا إذا كان رصين التركيب، سليما من التكلف، خاليا من التكرار في غير فائدة، كما رأيت ثم قال:

..... ثم محسن المعاني يستطر

يعني أن البديع المعنوي هو ما سيفصله الآن بعد انتهائه من أقسام البديع اللفظي، وبدأ الكلام عليه بالتورية، وهي لغة مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره، واصطلاحا ما أشار إليه بقوله رحمه الله تعالى:

تورية إرادة المعنى الغريب بلفظك المحتمل المعنى القريب

يعني أن التورية هي أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود، ودلالة الفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد مقصود ودلالة اللفظ عليه خفية، فيتوهم السامع أنه يريد المعنى القريب وهو إنما يريد المعنى الغريب أي البعيد بقرينة تشير إليه ولا تظهره وتستره عن غير المتيقظ الفطن، كقوله تعالى {هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار} الآية، أراد تعالى بقوله جرحتم معناه البعيد وهو ارتكاب الذنوب، ومنه قول الشاعر:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا ما استقل يمان

يريد بالثريا امرأة جملة من بني مخزوم ويريد بسهيل رجلا دميما من بني عفان، ولهذا سميت بالتورية إيهاما وتخييلا، ثم قال رحمه الله تعالى:

فجمع ضدين طباق وهو إن يختلفا سلبا وإيجابا زكن

طباق سلب وهو حيث اتفقا طباق الإيجاب له تحققا

يعني أن الطباق منة المحسنات المعنوية، ويسمى بالمطابقة وبالتضاد وبالتطبيق وبالتكافؤ والتطابق، وهو أن يجمع المتكلم في كلامه بين لفظين متقابلين يتنافى وجود معناهما معا في شيء واحد في وقت واحد، سواء كان ذلك التقابل من باب التضاد أو التناقض والتضايق والسلب والإيجاب، واللفظان قد يكونان اسمين نحو {هو الأول والآخر والظاهر والباطن} ونحو {تحسبهم إيقاظا وهم رقود} أو فعلين نحو {وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا} أو حرفين نحو {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} {ولهن مثل الذي عليهن} أو مختلفين نحو {من يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل} وهو ضربان، طباق سلب وهو ما اختلف فيه الضدان سلبا وإيجابا، بحيث يجمع بين معنيين من مصدر واحد أحدهما مثبت والآخر منفي في كلام واحد، نحو {يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله} الآية، {ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا} أو أحدهما أمر والآخر نهي نحو {اتبعوا ما أنزل إليكم ولا تتبعوا من دونه أولياء} الضرب الثاني طباق إيجاب، وهو ما لم يختلف فيه الضدان سلبا وإيجابا نحو {قل اللهم مالك الملك تؤت الملك من تشاء، تنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير} وكقوله:

حلو الشمائل وهو مر باسل يحمي الذمار صبيحة الإرهاق

والطباق مما يزيد الكلام حسنا وظرافة، ثم قال رحمه الله:

وحيث ما يؤتى بمعنيين فصاعدا ثم مقابلين

كل لكل وعلى التـرتيب فذا المقابلة يا قريبي

يعني أن من المحسنات المعنوية نوع يسمى بالمقابلة، وهو أن يأتي المتكلم بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم يأتي بما يقابل ذلك على الترتيب، نحو قوله تعالى {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى} الآية، وكقوله تعالى {يحل لهم الطيبات ويحرم عليه الخبائث} ومنه قوله ﷺ للأنصار «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع» وقال خالد بن صفوان يصف رجلا، ليس له صديق في السر ولا عدو له في العلانية، ومنه قول الشاعر:

فتى كان فيه ما يسر صديقه ولكن فيه ما يسوء الأعاديا

وقوله

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

إلى غير ذلك ثم قال:

وحسن تعليل بأن يعللا حكم بغير علة الحكم علا

بفتح العين فعل ماض بمعنى ظهر وارتفع خبر عن قوله حسن تعليل، وقوله بأن يعللا إلخ صلة له تقدمت عليه، يعني أن من المحسنات المعنوية حسن التعليل، وهو أن ينكر الأديب صراحة أو ضمنا علة الشيء المعروفة ويأتي بعلة أخرى أدبية طريفة لها اعتبار لطيف مدعيا أنها العلة الصحيحة لذلك الشيء وأن غيرها لا يصح التعليل به، لاشتمالها على دقة النظر، بحيث تناسب المعنى الذي يرمي إليه فيزداد بها المعنى حسنا وشرفا وجمالا، كقول المعري:

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها في وجهه أثر اللطم

فإنه جعل ما يظهر على وجه البدر من كدرة ناشئ عن أثر اللطم على فراق المرثي، وقد يكون الشيء لا علة له في الظاهر وإن كان لا يخلو عنها في الواقع فيأتي له بعلة خيالية كقوله:

لم يحك نائلك السحاب وإنما حمت به فصبيبها الرمضاء

فإن نزول المطر من السماء وصف ثابت لا تظهر له في العادة علة، وقد علله الشاعر بأنه عرق حماها الحادثة لها بسبب عطاء الممدوح حسدا منها له وغيرة منه، ثم قال رحمه الله تعالى:

تأكيدك المدح بما يشبه ذم وعكسه والكل ضربين انقسم
أن تنفي الذم وتستثني من قولك مدحا بالثبوت مقترن
وتثبت المدح وتستثني أو تستدرك مدحا على ما قد رووا
وصورة العكس كهذين احتذي كالنعل حذو النعل يا ذا المحتذي

يعني أن من المحسنات المعنوية تأكيد المدح بما يشبه الذم، وعكسه، وهو تأكيد الذم بما يشبه المدح، وكل منهما ينقسم إلى قسمين، في الصورة الأولى من صورتي تأكيد المدح بما يشبه الذم، هي أن تنفي عن الشيء صفة ذم، ثم تستثني منها صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

الصورة الثانية، أن تثبت للشيء صفة مدح، ثم تأتي بعدها بأداة استثناء أو استدراك تليها صفة مدح أخرى، كقوله:

وجوه كأزهار الرياض نضارة ولكنها يوم الهياج صخور

وقد اجتمعا في قوله:

هو البدر إلا أنه البحر زاخر سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

أما العكس، وهو تأكيد الذم بما يشبه المدح فله صورتان هو الآخر، الأولى أن تنفي عن الشيء صفة مدح ثم تستثني منها صفة ذم بتقدير دخولها فيها، كقوله:

خلاص الفضل غير أني أراه في الحمى لا يجارى

ومنه قولهم: لا خير فيه غير أنه لا يعرف للجار حقا، الصورة الثانية، أن تثبت للشيء صفة ذم ثم تأتي بعدها بأداة استثناء أو استدراك تليها صفة ذم أخرى، كقولك فلان حسود إلا أنه نمام، ومنه قوله:

هو الكلب إلا أن فيه ملالة وسوء مراعاة وما ذاك في الكلب

وقوله:

لئيم الطباع سوى أنه جبان يهون عليه الهوان

وقولك فلان جبان لكنه فاسق، ثم قال رحمه الله:

ومنه أسلوب الحكيم يذكر ورسمه الذي به يصور

تلقيه الذي يخاطب بغير ما منه له يرتقب

يعني أن من البديع المعنوي الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المتكلم المخاطب بغير ما يترقب منه، فقوله له صلة بمخاطب بكسر الطاء، ومنه صلة يرتقب منه، وهو ضربان، وإلى الأول منهما أشار الشيخ بقوله رحمه الله:

إما إجابة على سواء ما عنه يسألك للإيماء

أن الذي أجبته عنه استحق سؤاله فكان بالذكر أحق

يعني أن الضرب الأول منه أن يترك المتكلم جواب سؤال المخاطب عما سأل عنه، ويجيبه عما لم يسأل عنه، إشارة إلى أن الذي أجابه عنه كان أحق بالسؤال عنه من السائل، نحو قوله تعالى {يسألونك ما ذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين} فقد سألوا عن حقيقة ما ينفقون من أموالهم، فأجيبوا ببيان طريق إنفاق المال، تنبيها على أن هذا هو الأولى بالسؤال عنه، ثم أشار إلى الضرب الثاني بقوله رحمه الله:

أو تحملن قول ذا القول على ما منه قصده بقوله خلا

لأن ذا بقـــصـــده أحـــق .....

يعني أن الضرب الثاني من قسمي الأسلوب الحكيم، هو أن يحمل السامع كلام المتكلم على غير ما يقصده أو يريده، تنبيها على أنه كان ينبغي له أن يقصد هذا المعنى، مثل ما فعل القبعثري بالحجاج، إذ قال له الحجاج متوعدا لأحملنك على الدهم، يريد قيد الحديد، فقال القبعثري مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، يعني الفرس، فقال الحجاج إنما أردت الحديد، فقال القبعثري لأن يكون حديدا خير من أكون بليدا، ومراده تنبيه الحجاج بأن الأليق به الوعد لا الوعيد، ومنه قول ابن حجاج البغدادي:

قلت أثقلت إذ أتيت مرارا قال ثقلت كاهلي بالأياد

قلت طولت قال أو ليت طولا قلت أبرمت قال حبل وداد

وهذا آخر ما أراد الشيخ جلبه في هذه المنظومة المباركة من الفنون الثلاثة ولذا قال:

..... والله ربـــنا الإلـــه الحـــق

ســـبحانه أكمـــل حمـــد وأتـــم لـــه ومـــن للرســـل والـــوحي خـــتم

عليـــه أكمـــل الصـــلاة والســـلام مـــا جـــاء بـــدء وختـــام لكـــلام

تصور معنى مفردات الأبيات واضح، وقد ذكر فيها ما يسمى عند أهل الفن ببراعة الاختتام، وهو أن يذكر المتكلم في آخر كلامه ما يشعر بالتمام والانتهاء من غير تصريح، وباختتام المنظومة نختتم ما تيسر من شرحها، جعله الله تعالى خالصا لوجهه الكريم، ونفع به وبأصله النفع العميم، إنه على كل شيء قدير، وبإجابة من دعاه جدير، راجيا ممن وجد فيه خللا أن يتغاضى فيه عن هفوتي، ويقيل فيه عثرتي، وأن ينبهني عليه إن كنت في قيد الحياة، وإلا أصلحه جانبا بعد التأمل، رجاء وجود محل له من الصحة، إذ كم من عائب ألح، مع أني أول من جاب مهامه قفره، وتجشم صعب وعره، والسيف ينبو والجواد يكبو، فما كان فيه من صواب فمن الله ثم من سادات علماء الفن وأدبائه، وما كان فيه من خطأ فمن الشيطان ثم مني، وهم منه بريئون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله

رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. وكان الفراغ من تسويده ضحوة الاثنين الخامس عشر من شهر الله المحرم سنة أربع عشرة بعد المائة الرابعة والألف من هجرته صلى الله تعالى عليه وسلم، وكتب الفقير إلى عفو ربه محمد بن محفوظ ابن المختار فال، كان الله له ولوالديه وأشياخه وأحبته وإخوته وليا ونصيرا آمين.